٧
المقتطف
الجزء الرابع من المجلد التاسع بعد المائة

١ نوفمبر سنة ١٩٤٦ ——— ٧ ذي الحجة سنة ١٣٦٥

هذي هي الاغلال

لعلَّ هذه أول مرة في تاريخ هذه المجلة يعني محرر من محرريها بكتاب يصدر فيخصص له الصفحات الأولى منها . لا نقول هذا لأن هذا تقليداً جديداً في الصحف العلمية أو الأدبية ، فقد تفرد مجلة من كبريات مجلات العالم مقالها الافتتاحي لنقد كتاب أو التعريف بمؤلف ، وإنما نذكر ذلك لأن هذه أول مرة يفرد المقتطف افتتاحيته للكلام في كتاب يصدر في الشرق أو الغرب . ولا شك أن ذلك إنما يرجع إلى أن هذا الكتاب ، هو في تقديرنا يستحق هذه المنزلة وله أن يحتل هذه المكانة .

ليس لنا بصاحب هذا الكتاب معرفة من قبل ، ولم يدر بخلدنا أن أستاذاً نابهاً كالأستاذ عبد الله القصيمي يمكن أن يخرج على أهل هذا الزمن بمثل هذه الأفكار من بيئة بعيدة عن الاحتكاك بأفكار العصر الذي نعيش فيه ، ويذهب في تحليل العقلية الجامدة التي وقفت بأهل الاسلام القرون تلو القرون،ذلك المذهب الحر المتزن المستند إلى حقائق مقتطعة من صميم الحالة الاجتماعية والعلمية ، التي تكتنف أهل الشرق والمسلمين منهم خاصة .

ونحن فوق ذلك لا ننتصر للكتاب ولا لصاحب الكتاب ، وإنما ننتصر لاعتقادنا الجازم بأن الكتاب وصاحب الكتاب هما إلى جانب الحق في تصوير عقلية المسلمين في هذا الزمن الذي دارت عجلته وظلت عجلة المسلمين واقفة ، ولأن هذا العصر لا يواتي أهل النزعة الأخروية التي دسها على الاسلام مسلمون أو غير مسلمين ،ساءت نيتهم أم حسنت ، أولئك

الذين أدخلوا في الاسلام من نزعات الخنوع والتأخر والانحلال ما صبغه بتلك الصبغة التي لا يرضاها لنفسه مسلم، ويأباها الاسلام على كل المسلمين .

أنتصر لهذا الكتاب لأني أشتم فيه ريح القوة والجبروت والعزة التي هي من صفات الإسلام ، وليست الآن من صفات المسلمين . وأتنسم فيه عبير حرية الفكر وحرية الضمير ، وأرى فيه هزّة نفسية تصدر من أعماق الضمير الاسلامي على حقيقته الأصيلة، لا على ظاهر تلك الأقوال التي دسها على الاسلام ونبي الاسلام ، مغفلون من أصحاب التقوى الزائفة ، أو مدلسون من أصحاب المذاهب المريضة ، أو مزورون من أهل السياسة ، أو شعوبيون يودون لو أن العرب والعربية والعروبة تطوى صفحاتهن جميعاً من هذا الوجود ، أو دخلاء في الإسلام نقلوا إليه من مذاهب الزهد والنسك والباطنية، هنوداً كانوا أو روماً أو فرساً أو أغارقة ، ما كان سبباً في ضياع ملكهم وزوال سلطانهم ، أمام تلك القوة الكاسحة وأمام الخُلق الثابت والنفس المتأججة التي ضرب بها الإسلام في أصول تلك الممالك، فهشمها وحطم ملكها وأباد سلطانها، بعد أن نخر منها الزهد والنسك والباطنية العظم، وعرق اللحم، وخلفها حطاماً ، وجعلها أحاديث .

أيصدق مغفل أو مجنون أن النبي العربي صاحب الرسالة العظمى في تاريخ البشرية يقول : لا تنزلوا النساء الغرف ولا تعلموهن الكتابة واستعينوا عليهن بالمغزل وسورة النور ؟ وهو الذي جاء بدينه للمرأة نصيراً ، وهو الذي أنقذ الموءودة من جهالة الوثنية الأولى !

أيصدق مخبول أو معتوه أن محمداً بن عبد الله العربي الصميم وصاحب رسالة الإسلام يقول : اللهمَّ من آمن بي وصدّقني وعلم ان ما جئت به هو الحق من عندك، فأقلل ماله وولده وحبب إليه لقاءك ، ومن لم يؤمن بي ولم يصدقني ولم يعلم ان ما جئت به هو الحق من عندك، فأكثر ماله وولده وأطل عمره ؟ وهو الذي جاء بدين للدنيا والآخرة !

أيصدق مسلم صادق الإسلام أن نبيه يقول : إنما بعثت بخراب العالم ولم أبعث بعمارته ؟ إلاّ أن يكون خليع بيمارستان أو هارباً من مستشفى مجاذيب !

أيدخل في تصور مسلم مؤمن بمحمد وبرسالة محمد أنه يقول : من أخذ لقمة أو كسرة

من مجرى الغائط والبول فغسلها ثم أكلها لم تستقر في بطنه حتى يغفر له ؟ إلاّ أن يكون طويل الأذنين كالحمار ؟

أتصدقون أيها المسلمون الصادقو الاسلام ان نبيّكم وصاحب رسالتكم يقول : لا يأتي زمان إلاّ والذي بعده شرّ منه ، وأنه يقول : لا يزداد الأمر إلاّ شدة ولا الناس إلاّ شحّاً ولا تقوم الساعة إلاّ على شرار الخلق ، وأنه يقول : كل شيء ينقص إلاّ الشرّ فإنه يزيد ؟

أهذه هي العقلية التي دوّخت العرب وهم عمالقة الأمم ، ودوخت الفرس والرومان ؟ وفتحت العالم المعمور من حدود بحر الظلمات إلى أغوار الصين ؟

اذا كانت الشعوبية قد استطاعت ان تدسّ على الاسلام وعلى العرب وعلى المسلمين أجمعين كل ما اتصفت به الأمم التي أكلها الاسلام أكلاً وهضمها هضماً ، وهي ترسف في قيود الزهد والنسك والباطنية ، وإذا كنا قد استطعنا الآن أن نلحظ شعاعاً من نور في الأفق الذي غشت عليه هذه النزعات وأظلمته تلك الآراء المزوّرة والاحاديث المدسوسة ، ألا يكون من أسباب قوتنا أن نعرف انه قد دُسّ علينا ودُلّس على ديننا وزوّر على عقيدتنا ، واننا بذلك انحدرنا من تدويخ الامبراطوريات وتحطيم القائم من الوثنيات ، إلى الكلام في مثل ما تكلم فيه السيوطي في كتابه « كشف المعمي في فضائل الحمّي » ، وكتابه « الطرثوث في فضل البرغوث » ، أو ما تكلم فيه ابن حجر العسقلاني في كتابه « بذل الماعون في فضل الطاعون » ، أو ما ترى في كتب المناقب وغير كتب المناقب من الخرافات التي تهلع لها قلوب الأحرار ، والأساطير التي تهتز لها الارض وتفزع السّماء ، أو البحث فيمن يحمل فوق ظهره قربة ملئت فُساءً هل تصح صلاته بها أم ينتقض وضوؤه ؟

الأغلال التي قيدت الإسلام والمسلمين ، والأساطير التي أودت بحياة الرومان والفرس ، والخرافات التي دست علينا ودخلت في ديننا زوراً ، ونزعات الزهد الكاذب والنسك البائر والصوفية المجذونة والباطنية البلهاء ، تلك هي الأشياء التي يدعو هذا الكتاب إلى تحطيمها ونبذها بل وحرقها وتذريتها مع الريح ، لنرتد ثانية إلى إسلام محمد والصديق وعمر ، وإلى رجولة بن الوليد وأبي عبيدة وعبد الرحمن الداخل ومحمد بن القاسم ، ونقول مع نبينا وصاحب شريعتنا السمحاء : الساكت عن الحق شيطان أخرس.

اسماعيل مظهر

من الأغلال

« إن الجهل الاعتقادي قد ضرب على قومنا عقداً فوق عقد ، وان أفضل ما يعمله المرء أن يحل عقدة من هذه العقد . . . إن للوهم الواحد في الحياة ثلاث نتائج :

أولاها : أن يعوق عن السير الى الغاية المنشودة ، وثانيها : أن يوجه جهة أخرى مضادة ، وهذا فيه من الابعاد عن الغاية وضياع الجهد المبذول سدى ، وثالثها : افساد العقل ... فان الاوهام تأكل العقول وكل وهم يأخذ من العقل بقدره . ولا تزال الاوهام تتوالى عليه حتى يصبح عاجزاً عن التمييز في النهاية عن وظيفته . . . أما ما في هذا الكتاب هو من الحقائق الازلية الابدية التي تفقدها أمة فتهوى ، لانها فقدت حقيقة من حقائقها الطبيعية ، وتأخذ بها أمماً أخرى فتنهض لانها قابلت الطبيعة الكاملة بطبيعتها الكاملة ... ولن يوجد مسلم واحد بين الاربعمائة المليون المسلم ، يستغني عن هذه الافكار اذا أريدت له حياة صحيحة طبيعية ».

***

« ان الدين اذا فسد العمل به ، صار آلة ضعف وانحطاط » .

***

« ان التفاوت بيننا معشر المسلمين ، وبين الاجناس والامم الاخرى ، لا بد له من أسباب وعلل . وهذا ما لا ريب فيه . فليس من المعقول أن يكون تقدم قوم ، وتأخر آخرين متشابهين لهم من ظاهر الخلق ، بل وباطنه ، صدفة من الصدف أو مجرد اتفاق لا تعليل له ، بل كل شيء قائم على أسباب وعلل » .

والمسألة لها احتمالان أو فرضان من حيث النظر العام : أحدهما أن يقال : إن هذا التفاوت طبيعي في أصل التكوين وجبلة الفريقين ، وثانيهما أن يقال انه تفاوت عارض له أسباب عارضة من الممكن علاجه ومن الممكن الشفاء منه .

أما الفرض الاول : فليس من الممكن القول به ولا المصير اليه . وذلك أن تطور العقل البشري في جميع مراحله ومراحل وجوده ، لا يبقى لهذا الفرض فرصة لان يكون مقبولا قائماً . واذن فالفرض الآخر هو الصحيح الواجب المصير اليه ، وعليه بنينا بحثنا وكتابنا.

عبد الله القصيمي

في هذي هي الاغلال

أمحوتب

وزير الملك زوسر وطبيبه

وبالتالي إلـه الطب المصري القديم

خصص هذا المقال لذكرى الطبيب والساحر والحكيم الممتاز ، الذى ظهر لأول مرة على مسرح التاريخ المصري في عهد الملك زوسر من الأسرة الثالثة كما ظهر بعدئذ مرة ثانية على نفس ذلك المسرح ، خلال مدة تزيد على ثلاثة آلاف سنة .

فاليك أيها القارىء تاريخ ذلك الطبيب « أمحوتب » في عصر نشاطه ، وشباب شهرته ، معاصراً للفرعون « زوسر » ، وفي العصور التاليـة ، حيث كان معتبراً نصف إله ثم أحد الآلهة المصرية .

﴿ نشأته وظهوره ﴾ كانت مدارس الطب عند قدماء المصريين تابعة للهيا كل وخاصة رجال الدين . قال هيرودت في كتابه الثاني ، الفصل ٨٤ :

« وكان من النظم المتبعة عندهم أن كل واحد من الأطباء يختص بعلاج مرض واحد ، »
« لا يعالج غيره . فكان فريق مختصًا بعلاج أمراض البطن ، وفريق مختصًا بأمراض »
« الرأس ، وفريق مختصًا بأمراض الأسنان ، وفريق مختصًا بالأمراض الباطنية » .

وقد ذكر هوميروس في كتابه « الاوذيسية » في الجزء الرابع العدد ٢٢٧ ، أولئك الأطباء ، ووصفهم بالمهارة في الطب والتفوق فيه حيث قال : « إن الرجال في مصر أكثر مهارة في الطب من جميع الشعوب » .

وقال « مانيثون » المؤرخ المصري القـديم : « إن الملك « أتونيس » من الأسرة الأولى مارس الطب ، ووضع كتباً قيمة في « التشريح » ، ولـكن يد الدهر قد لعبت بتلك الكتب حتى لم يبق لها أثر الآن .

وإنا لذاكرون هنا موجزاً عن حيـاة « أمحوتب » في أطواره الثلاثة ، التي لعب فيها أدواره الرائعـة على مسرح التاريخ ، حتى كان له من المكانة ، ما ألزم نُطس الأطباء وأفذاذ الفراعنـة ونبغاء المؤرخين أن يشيدوا بذكره ، وأن يكتبوا له صفحات ناصعة بيضاً ، باقية على الدهور والأزمان :

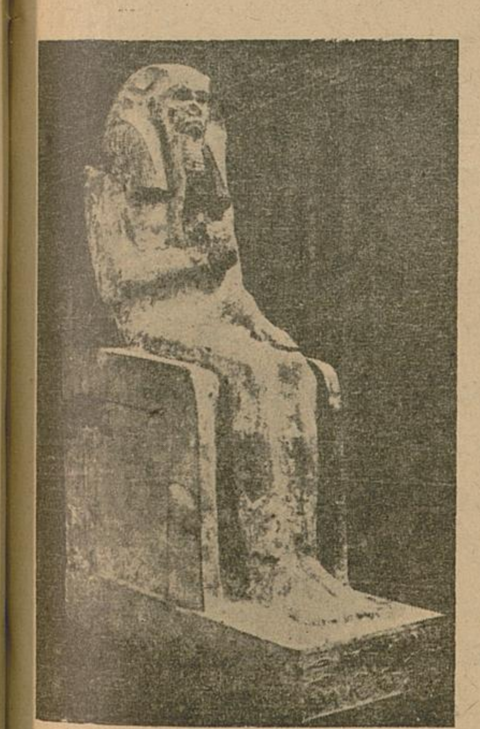
(١) « أمحوتب » معاصراً للملك « زوسر » (٢٩٨٠ سنة ق . م)
(٢) «أمحوتب» طبيباً نصف إلـه (سنوات ٢٨٥٠ — ٥٢٥ ق . م)
(٣) « أمحوتب » الهاً للطب (سنوات ٥٢٥ ق . م — ٥٥٠ ب . م)

ا — ﴿ أمحوتب المعاصر للملك زوسر ﴾ ولد « أمحوتب » في قرية « عنخ تاوي » القريبة من ممفيس ، في ١٦ من أبيب ، وتوفي في ١٧ من مسرى ، ولـكننا لا نعرف في أية سنة ولد ، ولا في أية سنة توفي ، كما إنا لا نعرف عن تاريخ طفولته شيئاً ، وكان أبوه « كا ـ نفر » مهندساً معمارياً بارعاً ، وكانت أمه تدعى « خرد ـ عنخ » ، وزوجته تدعى « رنبت ـ نفرت » وابنه « رع ـ حتب » .

وقد اصطلح قدماء المصريين على أن معنى «أمحوتب» — « الآتي بسلام » .

ولقـد بدأ « أمحوتب » حياته بنشاط متنوع نادر حتى استحق أن يلقب بالألقاب الآتية (١) وزير (٢) مهندس معماري (٣) كاهن وعالم بالطقوس الدينيـة (٤) حكيم وكاتب ماهر في علم الفلك (٥) طبيب وساحر .

ا — ﴿ أمحوتب الوزير ﴾ كانت وظيفة الوزير لفرعون من الوظائف الساميـة ذات المسئولية الـكبرى . فقد كان الوزير في الوقت الواحد يجمع بين الوظائف والألقاب المتنوعة : « حبيب الله ، وفم السـلام في الديار المصرية ، والمتصرف بأمر الملك في الوجهين القبلي والبحري ، وحامل أختام الملك ، ورئيس الأنبياء » .



ش ١ — الملك زوسر من الأسرة الثالثة

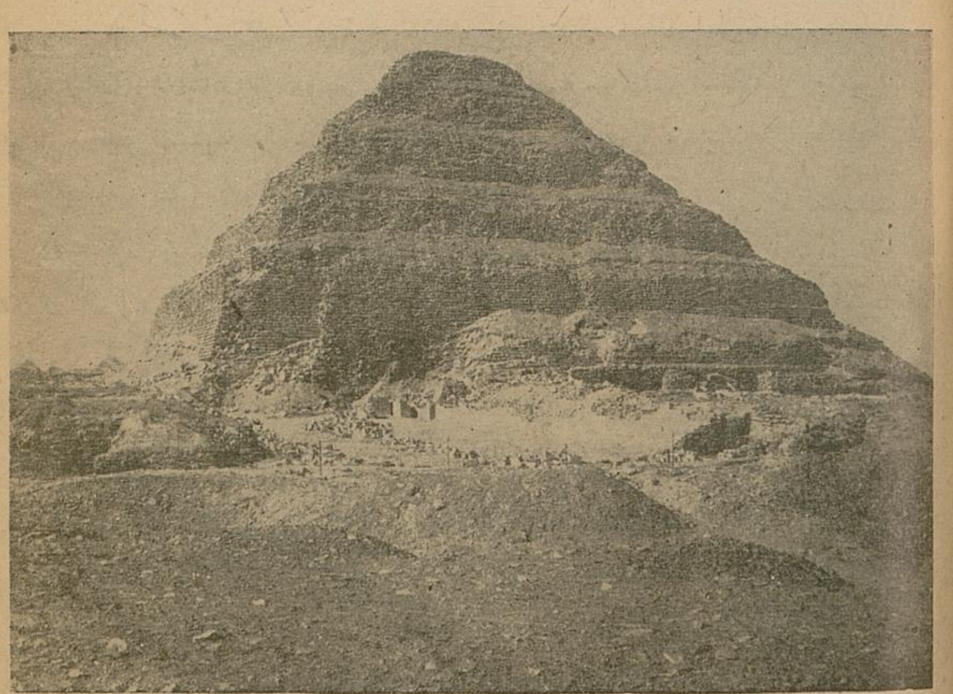
وفي عهد الدولة القـديمة اشتهر في الأمة المصرية ثلاثة وزراء (١) امحوتب (٢) كاجمنا (٣) فتاح حتب .

ووُجد منقوشاً على صخرة من حجر الجرانيت في جزيرة الساحل قبلي أسوان على ميلين منهـا ، خرافة مجاعـة السبـع السنين ، وإن تاريخهـا يرجع الى عصر البطالمة ، على أن شكلها يدل بوضوح على رجوع تاريخها الى عهد الملك « زوسر » ، ووزيره « أمحوتب »

وقد ذكر في الفصل ٤١ ، العدد ٥٤ من سفر التكوين : « وابتدأت سني الجوع تأتي كما قال يوسف « فكان جوع في جميع البلدان ، وأما جميع أرض مصر فكان فيها خبز »

وفي سنة ١٩٢٦ عُثر على تمثال الملك « زوسر » (ش ١) في الهرم المدرج ، وقد نقش على قاعدته أن الوزير أمحوتب أهداه لمليكه .

ب — ﴿ أمحوتب المهندس المعماري ﴾ كان « أمحوتب » رئيس جميع أشغال الملك « زوسر » في الوجهين القبلي والبحري ، وكان مهندساً معمارياً بارعاً ، إذ تعلم هذا الفن عن أبيه « كانفر » الذي اشتهر بفنّه في جميع بقاع الديار المصرية .



شكل ٢ — الهرم المدرّج للملك زوسر

ولما اعتزم الملك « زوسر » بناء هرمه المدرج (ش٢) في سقارة بمقربة من ممفيس عيّن « أمحوتب » وزيراً مهندساً للاشراف على بناء ذلك الهرم فكان ذلك الهرم درجة انتقال في قبور قدماء ملوك مصر من المصطبة إلى الهرم الحقيقي . وأول من اخترع الهرم المدرج هو « زوسر » ووزيره « أمحوتب » ذلك المهندس الذي وضع هرم مليكه على شكل مستطيل تقريباً ، تبلغ مساحة قاعدته الشرقيـة والغربية ٣٩٦ قدماً ، وطولها من الجانبين

الشمالي والجنوبي ٣٥٢ قدماً وارتفاعه ١٩٥ قدماً تقريباً ، وبه ست درجات طول الواحدة منها على الترتيب : ٣٨ / ٣٦ / ½٣٤ و ٣٢ / ٣١ / ½٢٩ ، فيكون مجموعها ٢٠١ قدماً ، ويتفاوت عرضها بين ستة وسبعة أقدام .

واتسعت رقعة البلاد المصرية في زمانه ، وعُبّدت طرق المواصلات بين البلاد المصرية وبلاد الهند وما بين النهرين ، إذ وجد في تلك البلاد آثار قديمة وصُنعت على شكل هرم « زوسر » المدرّج ، يستدل بها على انه كان بين مصر وتلك البلاد طرق مواصلات (راجع كتاب : W, Simpson. The Tower of Babel and the birs Nimrod.)

ج — ﴿ أمحوتب رئيس كهنة ﴾ كان الكهنة عند قدماء المصريين طبقتين : الأولى الراقية وهم الأنبياء (حمو نتر) أي خدمة الآله ، والثانية العادية (أوآب) . وكان أمحوتب رئيس الكهنة الدائمين ومن الطبقة الأولى الراقية ، حيث اعتبره عامة الشعب كاهناً وطبيباً .

وكان فرعون هو الكاهن الوحيد الأعلا ، المتأنس من حورس المهيمن على جميع الطقوس الدينية ، ولكن « أمحوتب » باعتباره ممثل الملك ، له جميع السلطات الدينية المخولة له من مليكه ، كان في نظر عامة الشعب رئيس الكهنة .

د — ﴿ أمحوتب حكيم وكاتب ﴾ اشتهر « أمحوتب » بأنه أكبر حكماء المصريين ، وكان له في ذلك الميدان آثار كثيرة بقيت أعواماً ودهوراً طويلة وانتشر بعضها في كثير من البلاد ، ومن ذلك الغناء الجنازي الشهير « بغناء القيثارة » ، ومنه : « ألق خلفك كل الهموم ، واذكر الأفراح حتى يأتي اليوم الذي تسافر فيه الى أرض الصّمت » . فكان لهذا الغناء أثر عظيم في نفوس المصريين ومن جاورهم . وقد ترجمه العالم الألماني « إرمن » من المصرية القديمة الى لغته ، كما ترجم هذا الغناء الى عبارات أشهرها ما ذكرناه آنفاً . وبقيت هذه الأنشودة سنين طويلة حتى نقلها اليونان والرومان عن المصريين ، وترجموها بما يأتي :

« دعنا نأكل ونشرب لأنّنا غداً سنموت » وذكر القديس بولس الرسول هذه الأنشودة في رسالته الثانية لأهل « كورنثوس » في الفصل ١٥ العدد ٣٢ بعبارة : « إذا كان الأموات لا يقومون ، فلنأكل ونشرب فانّا غداً سنموت » .

***

وقال هيردوت في الفصل ٧٨ من كتابه الثاني : « إعتاد أغنياء المصريين أن يأتوا بعد

تقديم الاطعمة في ولائمهم، بتابوت من الخشب (ش ٣) فيه صورة انسان ميت طبق أصلها في الهيئة والرسم ، يبلغ طولها ذراعاً أو ذراعين ، ويطوّفون بها على كل شخص من المتكئين قائلين له : « انظر الى هذه الصورة ، وكل واشرب وانشرح ، فإنك ستكون مثلها بعد الموت » .



(ش ٤) أزوريس إلـه الأموات



(ش ٣)
تابوت من الخشب يحتوي على جثة تحوتمس الثالث

وكان من عاداتهم أن عملية تحنيط جثة الميت تستغرق أربعين يوماً ، قبل أن يدخلوها قبرها ، وفي خلال تلك المدة يقيمون الحفلات الطّقسية عليها ، والأعياد الجنازية لها ، ويطوفون بالجثة المحنطة في كل وليمة عند انتهائها .

وقال « إهتين » (Stein) إن هذا الوجه الملوّن هو لأزوريس (ش ٤) ربّ الأموات

لأن كل انسان يموت يصير « ازوريساً » في العالم الثاني . وذكر فلوطرخوس « Plutarchus » ولوكيان » Lucian هذه العبارة ، غير أنه لا يوجد لها أثر في العاديات القديمة .

وقال « ماسبرو » في كتابه « Annuaire Des Etudes Grecques pp. 176—186

« يوجد في المتاحف وجوه كثيرة صغيرة مصنوعة من الخشب تمثل مومياء في نعش ، بينها وبين ما وصفه هيردوت كثير الشبه ، وان العظة التي نقتبسها منه مذكورة في بعض القصائد المصرية القديمة » كما أوضحنا ذلك سابقاً .

وكان قدماء المصريين يعتبرون ان سعادتهم في تشييد مدافنهم ، وكانوا لا يدخلون القبور ، بل يجتمعون في أيام معلومة في مدافن أجدادهم ، ويقيمون الولائم لهم ، ويطوفون بتمثال حول المدعويين .

اشتهر اسم « امحوتب » مع الحكيمين الشهيرين : « كاجمنا » المعاصر « لحوني » آخر ملوك الأسرة الثالثة ، « وفتاح حتب » وزير « آسي » آخر ملوك الأسرة الخامسة .


(ش ٥) تمثال لكاتب (مستشار) متربع بالمتحف المصري بالطبقة السفلى

و « لفتاح حتب » نصائح دينية قيمة مؤثرة في نفوس الخاصة والعامة ، نذكر منها هذه النصيحة الغالية التي تعلمنا فضيلة التواضع ، لصدورها من فيلسوف مصري قديم وهي : « إذا نلت الرِّفعة بعد الضَّعَة ، وحزت الثروة بعد الفاقة ، فلا تدخر الأموال بمنع الحقوق عن أهلها ، فانك أمين على نعم الله ، والأمين يؤدي أمانته ، وإن جميع ما وصل إليك ، سينتقل عنك الى غيرك ، ولا يبقى منه لك الا الذكر إن حسناً أو سيئاً »(١)

وكان « أمحوتب » كاتباً أي مستشار الملك (ش ٥) « زوسر » يؤيد ذلك النقش الذي عثر عليه في معبد النوبة ونصه « أمحوتب رئيس الكتبة لغلال الوجهين القبلي والبحري » .

(١) راجع كتاب الادب والدين عند قدماء المصريين « لانطون ذكري صفحات ١٥ — ٢٠ »

هـ — ﴿ أمحوتب عالماً بالفلك والنجوم ﴾ كان المعبود « تحوت » عالماً في الفلك وغيره من العلوم ، حتى كان ينسب اليه وحده علم الفلك ، ولكن العالم الألماني « زيتي » (Sethe) عثر في نجم يوناني يرجع تاريخه الى سنة ١٣٨ ق . م. ان « أمحوتب » كان شريكاً للمعبود « هرمس » في التنجيم (أي معرفة المغيبات بواسطة النجوم) .

قال هيردوتس في كتابه الثاني في العدد الرابع : « أما ما يختص بالأمور الفلكية وعلم النجوم ، فقد اتفق الجميع على أن المصريين أصحاب الفضل والسبق في رصد سير النجوم والكواكب » .

***

و — ﴿ أمحوتب ساحراً وطبيباً ﴾ كان السحر والطب في عهد الفراعنة ممتزجين بعضهما ببعض، وكان السحر في الغالب معتبراً عندهم قرين الطب ، كما كان « أمحوتب » معتبراً نصف إلـه للطب في عهد الملك « منـكاورع » من الأسرة الرابعة ، وإلهاً كاملاً للطب في عهد العجم في مصر .

٢ — ﴿ أمحوتب نصف إله للطب ﴾ كان قدماء المصريين يطلقون على كل من امتاز في حياته بميزات طبية قانونية وذهنية، لقب « البطل » أو « البطل الالهي » أو « البطل نصف الـه » ، وكذلك كان عامة الشعب الفرعوني ، يعتبر أولئك الممتازين بعد موتهم قوماً فاقوا قوة البشر ، فيقدمون لهم فروض العبادة من أجل ذلك .

والورقة البردية التي عُثرَ بها في سنة ١٩١٣ العالمان « جرنفل وهنت » في « أكسير نـكوس » (Oxyrhynkos) بالفيوم تدل بوضوح على أن « أمحوتب » كان معتبراً عندهم نصفَ إلـه للطب، إذ وجد مكتوباً عليها « أن « أمحوتب » كان معتبراً نصف إله في عهد الملك « منـكاورع » بن خوفو الذي يرجع تاريخه الى سنة ٢٨٥٠ ق . م ، وبعد بداية حكم زوسر بمائة وثلاثين عاماً ، وفي الغالب أنَّ تلك الورقة البردية كتبت في القرن الثاني قبل الميلاد .

***

ومن الغريب أن هيردوتس . ذكر في الفصل ٥٠ من كتابه الثاني « إن قدماء المصريين لم يؤدوا فرائض العبادة « للأبطال » ، فكأنَّ هيردوتس كان يجهل تاريخ قدماء المصريين ودياناتهم الحقيقية ، ولم يرشده أحد من الكهنة الى أن من أبطال قدماء المصريين

« أمحوتب » ، وأمنوفيس بن حاعپي (ش ٦) اللذين فاقا عامة الشعب المصري وأُلِّـها أي رقيا الى الألوهية ، وشيدت لهم المعابد الكثيرة . كذلك كان هيردوتس لا يعرف شيئاً عن جغرافية مصر القديمة ، إذ لو عرفها لعرف انه كان من بلادها في عهد اليونان بلدة تدعى « قرية الأبطال ! وهي المعروفة اليوم » بتل المسخوطة (بيثوم) .



(ش ٦) أمنوفيس بن حاعپي



(٧) أمحوتب نصف آلـه للطب

وكان قدماء المصريين يصورون « أمحوتب » صوراً متنوعة ، ويرسمونه رسوماً متعددة ، تختلف باختلاف تطوراته ، وتتشكل حسب رقي درجاته ، فكانوا يرمزونه بصفة نصف إلـه للطب (ش ٧) جالساً وبيده ملف على هيئة ورق البردي ، وفي رقبته عقدان ، وتارةً يصورونه عاري الرأس ، وأخرى لابساً قبعته ورسموه إلهاً كاملاً على صورة انسان حاملاً الشارات الملكية ، وفي يده اليمنى صولجان ، وفي اليسرى علامة الحياة ، كما رسموه واقفاً وجالساً(١)

(١) راجع (ش ٨) ثالوث ممفيس

٣ — ﴿ أمحوتب إلـه الطب ﴾ كان « أمحوتب » وزيراً للملك « زوسر » ، ثم رقي إلى درجة إلـه للطب في عهد كانت مصر تحت نير الفرس زمن « قمبيز » ، وفي الوقت الذي طرد فيه الأشوريون سنة ٦٥٤ ق . م . حتى ولاية العجم سنة ٥٢٥ ق . م وكان قد مضى بين وزارته وتأليهه خمسة عشر جيلاً .



ش ١٠



ش ٨



ش ٩

ثالوث ممفيس (٨) امحوتب اله الطب المصري القديم والى يمينه رقم (٩) الاله فتاح والى يساره رقم (١٠) المعبودة سخمت

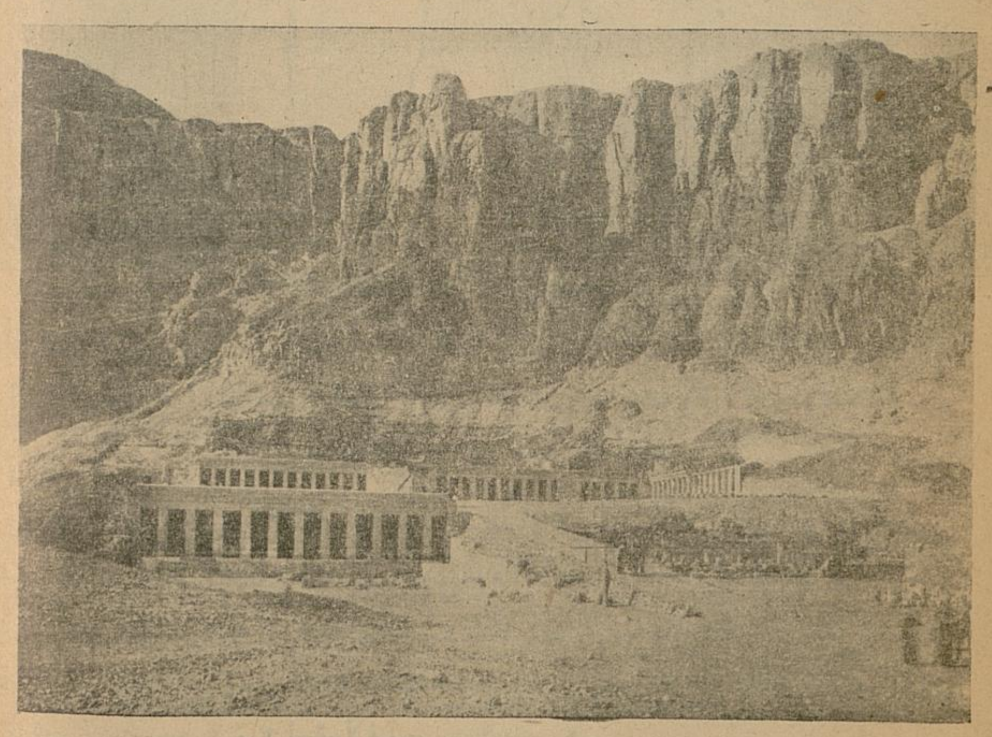
فقد نشأت الأسرة ٢٦ المعروفة بالأسرة الصاوية ، ذات العصر المجيد في تاريخ مصر القديم . ولما شاهدت أعمال « أمحوتب » وآثاره الخالدة ، أرادت مكافأته خير مكافأة ، فلم تجد خيراً من تأليهه ورفعه الى درجة إلـه . ولقبته بابن الالـه فتاح (ش٩) وصار عضواً في ثالوث ممفيس الذي تكوّن من فتاح وزوجته سخمت (ش١٠)، وأمحوتب ، الذي سمّاه اليونان « اموثيس Amouthes » و « اسقولافيوس Asklepios » .

وقد شيّد له المصريون معابد كثيرة بوصفه إلـه الطب ، أهمها معبد ممفيس الذي صـار أكبر مستشفى ومدرسة للسحر والطب بعد ذلك ، ولـكن مما يؤسف له أن الامبراطور « ثيودوس » هدم ذلك المعبد ، وكان به صندوق للصدقة على شـكل حية (ش ١١) وهذا الصندوق لا يزال محفوظاً بالمتحف المصري بالدور الأسفل منـه في الطرقة الشرقيـة

وُيرجـع تاريخـه الى العصر الروماني المصري .

وأقاموا له معبداً آخر يسمى « الاسقولافيون » Asklepion

(ش ١١)
صندوق للصدقة على شكل حية محفوظ بالمتحف المصرى بالطبقة السفلى



(ش١٢) معبد الدير البحري بالاقصر الذي شيدته الملكة حتشبسوت

بجزيرة « فيلة » الشهيرة باسم « الجزيرة المقدسة » شيّده بطلميوس الثاني حوالي سنة ٢٨٣ — ٢٤٥ ق . م ، ورغم كرّ الدهور ، وغمره بماء الخزان[1] الذي يغمره سنويًا ، بقي هذا المعبد قائماً للآن . كذلك شيّد بطلميوس التاسع حجرة في معبد الدير البحري (ش ١٢) خاصة بأمحوتب وأمنوفيس بن حابي .

***

المكتبات الطبية لأمحوتب

(إسقولافيوس) بممفيس

كان لكل معبد هام بمصر القديمة مكتبة خاصة به ، تحوي كتباً مخطوطة على جلد الغزال ، أو على ورق البردي ، وقد دوّنت بها الطقوس الدينية التي كانت تؤدّي يوميًا في تلك المعابد . وكان بعض الكتب يدوّن به « كتاب الموتى » الذي كان لزاماً على كل مصري أن يحفظه عن ظهر قلب . وكان بمعبد « إسقولافيوس » بممفيس ومعبد فتاح ، كتب « تحوت » المقدسة محفوظة بهما .

وكان لزاماً على كل طبيب أن يطبق عليها علاج المريض الذي يقوم بعلاجه ، ويعاقب الطبيب الذي يخالف التذكرة الطبية المصرح له باستعمالها في معالجة المريض . وقد نقل بعض الأطباء مثل « ثيوفراسطوس » (Theophraste) و « ديوسقوريدس » وغيرهما بعض العقاقير والتذاكر الطبية المصرية ، وطرق تشخيص المرض التي تعلموها في معبد فتاح أو « أمحوتب » بممفيس ، ثم انتشرت بعدئذ في أوروبا . وفي الحقيقة أن اليونان نقلوا كثيراً من العقاقير والتذاكر الطبية المصرية ، ثم نقلها عنهم جميع شعوب الأرض .

﴿ الأعياد المخصصة للمعبود أمحوتب ﴾ ذكر « جوتييه » ان الفراعنة في ممفيس كانوا يقيمون ستة أعياد في السنة اكراماً للمعبود « أمحوتب » :

فالعيد الأول كان لمناسبة ميلاد « أمحوتب » الذي ولد من امرأة بشرية ، وأبوه الاله « فتاح » الذي فرح بمولده كثيراً .

والعيد الثاني كان يقام في مثل اليوم الذي كانوا يحتفلون فيه عظيم الاحتفال بنقل تمثال « أمحوتب » من معبده الى معبد « فتاح » حيث كانت تؤدي له الطقوس الدينية .

---

(١) خزان اسوان

والعيد الثالث في مثـل اليوم الذي انتقمت فيـه المعبودة « سخمت » لإمحوتب من الأشوريين الأدنياء ، لما لاقاه منهم من الإهانات .

والعيد الرابع في مثل اليوم الذي توفّى فيه « أمحوتب » كان يقيمه أبوه فتاح .

والخامس تذكاراً لدفنه .

والسادس عيد تأليهه .

وقد بقيت عبادة أمحوتب وتأليهه حتى القرن الرابع بعدالميلاد ثم بطلت من بعد ذلك .

***

﴿ كيف بطلت عبادة أمحوتب ﴾ استولى الرومان على مصر سـنة ٣٠ ق . م وحصلت تغييرات اقتصادية كثيرة في مصر وفي خارجها ، وانتشرت الديانة المسيحية في القرن الثاني بعد الميلاد . في جميع أنحـاء البلاد المصرية ، وبخاصـة في الاسكندرية ، واعتنق الديانة المسيحية الملك قسطنطين سـنة ٣١٣ ب . م . ، وأمر الامبراطور « ثيودوس » الـكبير سنة ٣٨٠ ب . م . بأن تعتبر الديانة المسيحية دين الدولة المصرية ، وأدخل اليونان في مصر علومهم وثقافتهم الطبية من تاريخ تأسيس مدينة الاسكندرية سنة ٣٣١ ق . م . ، كل هذه الأسباب مجتمعة كانت كافية في إضعاف وإبطال عبادة « أمحوتب » في الديار المصرية .

***

هذا ما أردنا ذكره في هذا المقال عن الوظائف التي شغلهـا أمحوتب ، والصفات العالية التي امتاز بها من وفرة الذكاء وقوة الارادة وسموّ الآداب ودماثة الأخـلاق ، وغير ذلك من الصفات التي رفعته الى صف العلماء المشهورين والعظماء المعروفين في التاريخ المصري .

فهو إذن لم يترك ميتاً راقداً في إحدى مقابر ممفيس ، بل بقي خالد الذكر الى يومنا هذا بما اختص به من الدرجات التي لم ينلها أحد قبله ولا بعده من الفراعنة ، حتى رقيّ الى درجة الـه الطب ولقد صدق فيه القول المأثور :

«لم يمت من عاشت شهرته» "Non moritur cujus fama vivit" . واكراماً له ألـه قدماء المصريين أباه وأمه وزوجته وابنه تمجيداً له .

انطون زكري

أمين مكتبة المتحف المصري سابقاً

تحول النمو التدريجي

الى انقلاب في الثورة الفرنسية

كل نهضة إجتماعية لا بدَّ لها من النموّ التدريجي . ولـكن عند حد معين تكثر المؤثرات فتصير إنقلاباً قد يكثر فيه الشطط في الأقوال والأعمال وقد كانت الثورة الفرنسية مثالاً لهذا الانقلاب بعد النموّ التدريجي .

وعند ما بدأ المؤرخون كتابة تاريخها بطريقـة علمية كانت الفـكرة المستحوذة على أذهانهم أنها أنقلاب لا صلة له بالمـاضي وإنه لا يصح أن يجمع المؤرخ بين نظرية النموّ التدريجي ونظرية الإنقلاب والثورة الفكرية . وكان أشهر من نظر إليها من حيث أنها انقلاب، الكاتب الفرنسي تين . ولبثت هذه النظرة سائدة إلى أن أظهر مؤرخان صلاتها بالماضي فأظهر سوريل صلاتها به في شؤون السياسة الخارجية وأساليبهـا وأغراضها كما أظهر دي توكفيل صلاتها به في الأمور الداخلية .

عند ما أيقظ أحد الضباط النبلاء الملك لويس السادس عشر من نومه وأبلغه خبر اعتداء الباريسيين على سجن الباستيل واستيلائهم غليه،قال الملك:هذا عصيان.فقال النبيل:لا يا مولاي انها ثورة . وكما أن ذلك النبيل صحح رأي لويس السادس عشر، جاء تين المؤرخ وصحح رأي النبيل . فقال لم تكن ثورة فحسب، بل كانت فوضى واضمحلالاً .ثم أخذ يقيم الأدلة على صحة رأيه . والحقيقة أنها كانت فوضى واضمحلالاً في أول أمرها قبل أن تنظم بعد تجربة إثر تجربة

ولـكن سوريل ودي توكفيل قد أثبتا أنها بالرغم من ذلك كانت مرحلة عنيفة من مراحل التغير الذي شهده الماضي وأوضحا صلاتها بها . ولم تكن آراء دي توكفيل آراء نظرية،بل إنه طاف بمدن فرنسا ودرس السجلات المحفوظة من العهود السابقة وجعل يبحث وينقب حتى كوّن آراء لم يكن يتوقع تكوينها. فقال : كلما تقدمت في البحث ازداد تعجبي، لأني في كل حين كنت أجد نظماً وخططاً وصفات أراها في فرنسـا الحديثة ، وكنت أظنهـا نتيجة الثورة الفرنسية فإذا هي من عهدٍ أقدم، وقد وجدت أن العوامل التي انتصرت في الثورة الفرنسية هي العوامل التي كانت تعمل قبلها مثل توحيد المقاطعات والقوانين وتنظيمها وإزالة الفروق . لحيث وجد غيره من المؤرخين انفصالاً عن الماضي ، وجد دي توكفيل استمراراً منطقيـاً.

فوجد ان الثورة زادت السلطة المركزية العامة كما زادها ملوك البوربون قبلها. ولو ان الثورة أضعفتها أولاً في عهد التجربة والفوضى المؤقتة. ووجد ان الثورة الفرنسية قضت على البقية الباقية من آثار النظام الاقطاعي الذي ظلّ ملوك فرنسا يحاربونه دهوراً طويلة. وبالرغم من الأمور التي تدل على غير ذلك فإن الملوك كانوا يحاولون تحقيق المساواة أمام قانون الملك. وإنما سقطت الملكية لأنها تخلت عن خطتها القديمة ولم تتمها. ثم عاد دي توكفيل يقول ان الثورة الفرنسية هي نهاية عنيفة لعمل استمرّ أجيالاً كثيرة ودهوراً طويلة. وبالرغم من نقد النقاد له في الأمور الثانوية فقد صارت فكرته هذه أساساً ثابتاً لبحوث من يوثق بهم من المؤرخين حتى قال شيرير الناقد الشهير: إن ما فعله دي توكفيل لصلة الثورة الفرنسية بما قبلها قد فعل مثله علماء الجيولوجية عند ما وضعوا نظرية التغير التدريجي البطيء بدلاً من نظرية الانقلاب المفاجىء السريع في علم طبقات الأرض.

فكأنّ الثورة الفرنسية هي تتمة لأعمال الملوك مثل لويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر ولأعمال وزرائهم مثل ريشليو فقد كانت خطة ريشليو هي توحيد فرنسا ومحاولة ازالة الفروق المحلية واخضاع النبلاء، وقتل من يخرج منهم على القانون، ومحو نفوذهم السياسي، وقد نجح في ذلك حتى ان كثيراً منهم فضل ان يعيش في فرساي في حشم الملك وبطانته. وبزوال عملهم السياسي لم يبق ما يسوّغ ميزاتهم الخاصة كالاعفاء من الضرائب وغيرها. فلما جاءت الثورة الفرنسية قضت على تلك الميزات وكانت فرنسا الى عهد الثورة الفرنسية لم يتم توحيد نظمها وقوانينها. ففي كل مقاطعة قوانين ونظم. وكان هذا الاختلاف من بقايا عصر الاقطاع فما لم يزله الملوك من فروق، أزالته الثورة. وكان الملوك قد عطلوا اجتماع مجلس طبقات الشعب دهراً طويلاً كي لا يتقيدوا به. فلما ساءت مالية الدولة بسبب تبذير الحكومة الملكية ورفض الأشراف والكنيسة دفع الضرائب، اضطرت الحكومة خشية الافلاس الى عقد مجلس الطبقات، فكان فاتحة الثورة إذ تحوّل الى مجلس نواب موحد وهو الجمعية الاهلية بالرغم من معارضة الملك والاشراف والاساقفة، وتعطيل الملوك مجلس الطبقات دهراً طويلاً وخلو فرنسا من مجلس نيابي له خبرة، من أسباب تحول هذا النمو التدريجي البطيء الى ثورة عنيفة إذ أخذ الساسة بالنظريات العامة التي ظنّ انها تصلح لكل زمان ومكان.

وإذا نظرنا إلى الأمور الاقتصادية وجدنا أن هذا التغير التدريجي ملحوظ فيها أيضاً. فقد أثبت الباحثون أن عدد ملاك الأراضي الزراعية من غير النبلاء زاد قبل الثورة الفرنسية بالرغم من قيود وضرائب. ولم تكن ثورة الفلاحين أول ثورة من نوعها. فقد شهدت فرنسا ثورات الجاكيري في القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر. ولكن ظلت أعباء الفلاح ثقيلة

إذ أنه كان يؤدي للنبلاء الفروض الإقطاعية وللكنيسة ما فرضته ويقوم بأعباء ضرائب الحكومة. ولكن حرص الفلاح الفرنسي مكنه بالرغم من ذلك في الأقاليم التي كان أحسن فيها حالاً من شراء بعض أراضي النبلاء والفقراء كما تمكن غيرهم من البورجوازية فازدادت طبقة الفلاحين في العصور التي سبقت الثورة الا في سني الشدة بين سنة ١٦٨٠ و ١٧٥٠. ثم جاءت الثورة الفرنسية فضاعفت طبقة الفلاحين بسبب بيع أراضي الكنيسة وأراضي النبلاء المهاجرين. فهذا أيضاً نمو تدريجي غايته انقلاب. واذا نظرنا الى الآراء السياسية والاجتماعية الحديثة وجدنا انها بدأت قبل الثورة وكان بعضها مستفاداً من لوك الفيلسوف الانجليزي ومن مبادىء اعلان استقلال الولايات المتحدة وبعضها من دراسة تاريخ الاغريق والرومان. ولقد كان لهذه الآراء الحرة أثر في الثورة الفرنسية بالرغم من أن أكثر الشعب كان غير مثقف لأنها هيأت للثورة قادة وخطباء وكتاباً وصحفيين ومنظمين ، ولأنها أثّرت في طبقة الأشراف، فأسقطت سلاحهم، أو جعلته واهياً، وكانت هذه الآراء بين كثير من الأشراف قبل الثورة زيّاً جديداً يفرحون ويتجملون أو يلهون به متخذين منه مظهراً. ويكفي أن نذكر كيف أن الملكة وبعض النبلاء والأمراء تحايلوا حتى مُثِّلَت قصة (فيجارو) التمثيلية التي يسخر فيها مؤلفها بومارشيه من النبلاء ويشهّر بهم . وقد مثلت بالرغم من ارادة الملك ووزرائه فكان هؤلاء النبلاء كالفراش الذي يتساقط على النار . هذه الآراء الحرة لم تكن مباغتة بل كانت نمواً تدريجياً انقلب ثورة .

ونمت طبقة (البورجوازية) قبل الثورة نمواً تدريجياً وهم الطبقة الوسطى من رجال التجارة والصناعة والمال . والكلمة مشتقة من كلمة بورج أي مدينة . وكان رجال المال والتجارة يتحصنون في المدن في عهد الإقطاع ويتخذون جنوداً من أهل المدينة أو من المرتزقة ويمنعون النبلاء من السطو . وكان الملوك وهم يحاربون أمراء الاقطاع يمنحون أهل المدن ميزات ويستعينون بهم لإضعاف نفوذ الأشراف ، فكان أصدقاء لويس الحادي عشر وأعوانه منهم . ولكن لما صار النبلاء حاشية للملك في فرساي ، صاروا سداً يمنع تعاظم نفوذ البورجوازية . وبدأت هذه الطبقة تشعر بما ينقصها من منزلة إجتماعية حرمها منها النبلاء وكان بين أبناء البورجوازية كثير من المثقفين الذين قادوا الثورة ونظموها وبالرغم من ظهور المبادىء الاشتراكية فيها فقد تمكنت طبقة البورجوازية في النهاية من تحويل النفوذ السياسي والاجتماعي إليها بعد أن كان النفوذ الاجتماعي للنبلاء. فمن أية ناحية نظرنا إلى الثورة الفرنسية وجدنا أنها كما قال دي توكفيل كانت نهاية عنيفة لعمل استمر دهوراً طوالاً وهي تثبت أن النمو التدريجي البطيء لا يمنع من التحويل إلى انقلاب كبير.

ع . ش

ميزان الحكمة

للخازن

من أولئك العلماء النوابغ الأفذاذ الذين ظهروا في العرب كالخوارزمي والكندي والحسن بن الهيثم والبيروني، كان الخازن، وكان من المتقدمين من هذه الطبقة الفريدة التي نظمت عقداً لألاءً في جيد المعرفة الانسانية.

وكتاب ميزان الحكمة [1] كتاب نفيس فريد وضعه أبو الفتح عبدالرحمن المنصور الخازني المعروف بالخازن، وهذه الأخيرة، كنيته لأنه كان خازناً لمكتبة السلطان أبي الحارث سنجر بن ملكشاه بن ألب ارسلان برهان الدين سلطان خوارزم في النصف الأول من القرن الثاني عشر أي حوالي سنة ١١١٥ م. وهذا الكتاب هو الأول من نوعه في العلوم الطبيعية القديمة عامة وعلم المائيات الساكنة «الهيدروستاتيكا» خاصة.

وبحث الكتاب في مواضيع شتى منها — كما قلت — الهيدروستاتيكا، ومراكز الثقل، والأجسام العائمة والغائصة، والأثقال النوعية لكثير من المعادن ومواد أخرى، والكثافات للسوائل المعروفة آنذاك. وقد قسم الخازن كتابه هذا ثلاثة أقسام.

القسم الأول — يبحث في الكليات والمقدمات نحو، الثقل والخفة، ومراكز الأثقال ومقدار غوص السفن في الماء، واختلاف أنساب الوزن والقفان وكيفية الوزن به في المايعات، ومقياس المايعات لمعرفة الأخف والأثقل منها من غير وساطة الصنجات، ومعرفة النسب بين الفلزات والجواهر في الحجم وأقوال المتقدمين والمتأخرين في ميزان الماء وما أشاروا إليه

القسم الثاني — يبحث في صنعة ميزان الحكمة وامتحانه وإثبات مراكز الفلزات والجواهر

---

(١) ان هذا الكتاب مفقود ولا يوجد منه إلا نسخة واحدة في الهند ولكن بعض المستشرقين نقلوا بعض ما جاء فيه ونحن العرب عرفنا شيئاً عن هذا الكتاب نقلا عن أولئك المستشرقين ومعرفتنا أولا لم تكن تتعدى بضعة أسطر.

عليه ووضع صنجات لائقة ، ثم العمل في تحقيق الفلزات وتمييز بعضها من بعض من غير سبك ولا تخليص ، بعمل شامل للموازين كلها ومعرفة الجواهر الحجرية وتمييز حقها من أشباهها وملوّناتها .

القسم الثالث — يبحث في البيوعات والمعاملات . وهو يشتمل على طرف الموازين ومحلها نحو ميزان الدراهم والدنانير من غير وساطة الصنجات ، وميزان تسوية الارض على موازاة السطح الأفقي ، وميزان يعرف بالقسطاس المستقيم ، يوزن فيه من حبة إلى ألف ، دراهم ودنانير بثلاث رمّانات ، وميزان الساعات يعرف به الساعات الماضية من ليل ونهار وكسورها بالدقائق والثواني وتصحيح الطالع بها بالدرج وكسورها .

أما هذه الأقسام فتحتوي على ثماني مقالات

ففي المقالة الأولى : بحث في المقدمات الهندسية والطبيعية لبناء الميزان ، وفي رؤوس مسائل مراكز الأثقال لابن الهيثم وأبي سهل الكوهي ، ورءوس مسائل ارخميدس وأقليدس ومانالاوس ونوفس الروحي مع مسائل متفرقة في مقدار غوص السفن .

وفي الثانية : بحث أسباب اختلاف الوزن مع مقارنة نتائج ثابت بن قره والمظفر الإسفزاري

وفي الثالثة : بحث في النسب بين الفلزات والجواهر في الحجم ، وقارن نتائجه بنتائج أبي الريحان محمد بن احمد البيروني .

وفي الرابعة : بحث في موازين الماء التي استعملها اليونان أمثال ارخميدس ومانالاوس والتي استعملها العرب أمثال محمد بن زكريا الرازي والإمام عمر الخيامي الذين سبقوا الخازن ، وعدد أشكالها .

وفي الخامسة : بحث في صنعة ميزان الحكمة وتركيبه وامتحانه وتعريفه .

وفي السادسة : بحث في استعمال الصنجات . الخاصة بالميزان ثم بحث في تمييز الفلزات المختلطة وتعيينها ومعرفة وزنها في الهواء والماء .

وفي السابعة : بحث في ميزان الصرف وتقويمه على كل نسبة مفروضة ، ثم معرفة وزن كل فلز وجوهر من غير واسطة الصنجات .

وفي الثامنة : بحث في مجمل ما جاء في الأبواب المتقدمة من آلات في الميزان وطرق في استعماله .

فكان الكتاب في ثماني مقالات احتوت على تسعة وأربعين باباً وهذه الأبواب احتوت على ماية واحد وسبعين فصلاً .

***

ولقد أورد الخازن تعاريف عديدة للقوانين الفوزيقية منها :

١ — إذا تحرك جسم ثقيل في أجسام رطبة (سائلة) فإن حركته فيها بحسب رطوبتها ، فتكون حركته في الجسم الأرطب أسرع .

٢ — الأجسام المتساوية في القوة والحجم والشكل والبعد عن مركز العالم متساوية .

٣ — كل جسم ثقيل يكون على مركز العالم ، فإن مركز العالم يكون في وسطه ويكون ميل أجزائه مع جميع جهاته إلى مركز العالم ، تقسم كل واحد منها الجسم لقسمين متعادلي الثقل عند ذلك السطح .

٤ — إذا ضمَّ إلى أثقال متعادلة عند سطح مفروض أثقال متعادلة عند ذلك السطح فإن الجميع متعادلة عند ذلك السطح .

٥ — كل جسم ثقيل يعادل جسماً ثقيلاً فانه لا يعادل بجميع ثقله ولا بأكثر من ثقله جزء من ذلك الجسم ما لم يتغير وضع أحدهما .

٦ — كل جسم ثقيل يتحرك الى مركز العالم فانه لا يتجاوز المركز ، وانه إذا انتهى اليه انتهت حركته .

٧ — كل جسمين ثقيلين بينهما واصل يحفظ وضع أحدهما عند الآخر ، فلمجموعهما مركز ثقل وهو نقطة واحدة فقط .

٨ — كل جسمين متعادلي الثقل عند نقطة مفروضة ، فان نسبة ثقل أحدهما إلى ثقل الآخر كنسبة قسمي الخط الذي يمر بتلك النقطة ويمر بمركزي ثقليهما ، أحدهما الى الآخر .

٩ — كل جسمين ثقيلين متساويين في الحجم والقوة والشكل ، مختلفي البعد عن مركز العالم ، أكثرهما بعداً أعظمها ثقلاً .

١٠ — الجسم الثقيل إذا تحرك في مائع يعاوق بعضه بعضاً ولهذا يعاوق الماء جرم الشيء الثقيل الذي ألقي فيه ويوهن قوته وثقله بقدر جرمه حتى يخف الثقل في الماء بقدر وزن الماء المساوي لجرمه فينقص عن ثقله بقدره ، وكلما كان الجرم المتحرك أعظم كانت المقاومة أكثر، وتسمى هذه المقاومة في ميزان الحكمة « الشول » .

١١ — الاجرام الثقال يعاوقهما الهواء وهي بذواتها في الحقيقة أثقل من ثقلها الموجود في ذلك . واذا نقلت الى هواء ألطف كانت أثقل ، وعلى خلافه اذا نقلت الى هواء أكثف كانت أخف .

١٢ — كل جرم ثقيل معلوم الوزن لبعد مخصوص من مركز العالم ، تختلف زنته بحسب اختلاف بعده منه فكلما كان أبعد كان أثقل وإذا قرب كان أخف ولهذا تكون نسبة الثقل الى الثقل كنسبة البعد الى البعد .

١٣ — كل شخصين متساويين قائمين على دائرة عظيمة من دوائر سطح الأرض تكون المسافة بين رأسيهما أكثر مما بين قاعدتيهما لأنهما على سهمين خارجين من مركز العالم ويصيران ساقي مثلث رأسيهما مركز العالم وقاعدته رأسهما ، وإذا وصل مقاما الشخصين صار الشكل مثلثين متشابهين فأطولها ساقاً أعظمهما قاعدة .

* * *

هذا عدد قليل من تلك التعريفات العديدة التي وردت في كتاب ميزان الحكمة وانني معجب كل الاعجاب من ذلك الاطلاع الواسع في العلوم الطبيعية الذي أحرزه العرب ولتلك الابتكارات والاعمال الواسعة التي قاموا بها في عصور كانت أوربا تتخبط في دياجير الجهل والغباوة .

يدلنا هذا الكتاب أو قل يدلنا مؤلف هذا الكتاب النفيس على ان فلاسفة العرب الطبيعيين جدّوا وأوسعوا في البحث في ايجاد الثقل النوعي للمعادن المخلوطة من نوع أو أكثر من نوع وتوصلوا الى ايجاد كم مقدر من كل نوع في ذلك المعدن المخلوط.

ولقد أوصلني هذا الكتاب الى النتائج الآتية :

أولاً — ان فلاسفة العرب الطبيعيين في القرن الحادي عشر والثاني عشر قد تقدموا الى حد بعيد في فكرة التجاذب ، ولو انهم لم يعرفوا تجاذب الأجسام المتبادل كما عرفه كبلر ونيوتن

ولكنهم قالوا ان جميع الأجسام تنجذب الى مركز العالم (ويعنوا بذلك الأرض) لأن الفكرة السائدة آنئذٍ هي أن الأرض مركز الكون. ولقد عرفوا أن القوة الجاذبة هي بنسبة بعد الجسم عن مركز الجذب وقدّروا ان القوة الجاذبة هي بنسبة طردية للمسافة.

ثانياً — لقد عرف العرب قوانين وسائل مضبوطة فيما يخص القوانين الميكانيكية، فهم عرفوا المعادلة التي تربط بين السرعة والمسافة المقطوعة مع الزمن الذي في اثنائه قطعت تلك المسافة، كما عرفوا قوانين مراكز الثقل والروافع وغيرها.

ثالثاً — وعرفوا ان للهواء وزناً وذلك بالتأثير الذي يحدثه الهواء على وزن الأجسام.

رابعاً — وفهم العرب فعل الشرقة، ووضع الماء في انابيب دقيقة شعرية لها فتحة واحدة.

خامساً — واستعمل العرب الايروميتر الذي ورثوه عن اليونان فحسنوه وقدروا بواسطته قياس حرارة الماء وذلك عند تقرير الكثافة التي هي بنسبة عكسية للحرارة.

سادساً — ووضعوا جدولاً للأثقال النوعية لجميع الأجسام الصلبة والمايعة التي كانت معروفة لديهم.

سابعاً — وعرفوا أيضاً ان هنالك قوة جاذبة على جميع جزيئات الأجسام وهذه القوة هي التي تبيّن لنا صفة الأجسام. وهذه نظرية جد مفيدة في التحليل الكيميائي وهذه مفتاح لعديد من خفايا الطبيعة.

* * *

ولأجل هذا أرى أن البحث والتنقيب عن أعمال طلاب مدرسة خوارزم في تلك العصور يستحق التعب والاكباب عليه من جميع نواحيه.

وأخيراً لقد أصبح هذا الكتاب «ميزان الحكمة» في متناولي وإني ان شاء الله سأجعلهُ في متناول جميع الذين يهمهم هذا العلم والذين ينقبون ويبحثون عن مخلفات الأسلاف وتراثهم القيم، في القريب العاجل.

القدس فؤاد جمعان

العقم في المرأة

شغلت مسألة عقم المرأة العلماء ، ولا سيما الأطباء ، في كل العصور بالنظر لأهميتها في بقاء النوع البشري ولرغبة النساء خصوصاً في الحمل . وقد كانت الشعوب القديمة تنظر لمسألة العقم نظرة خاطئة جدًّا وبعيدة كل البعد عن نظرة الشعوب الحديثة ، معتقدين أن حدوث الحمل أمرٌ موكول إلى القضاء والقدر . وبعضهم كان يؤمن بأن الحمل خاضع لأمر الآلهة والأصنام ، ولذلك كانوا يلجئون في حالة العقم إلى تقديم الهدايا والقرابين . وعندما تطوّرت أفكار الشعوب على مرّ العصور أخذوا ينكرون إنكاراً باتًّا تلك الخزعبلات والعقائد الدينية ويُبدلوا أفكارهم شيئاً فشيئاً وفقاً لتطوّر العلم الحديث . ومما يؤسف له جدًّا أن معظم الناس في أيامنا هذه يضعون كل اللوم على الزوجة إذا لم تنجب أطفالاً لزوجها ، مع أن هذا الزوج نفسه قد يكون هو السبب في عدم الحمل ، سواء لتفريطه بقواه قبل الزواج ، أو لإصابته بأمراض تمنعه من التمتع ببنين . ولهذا نرى الرجل يطلّق امرأته ظلماً وعدواناً ويقترن بامرأة ثانية ، وإذا لم تلد هذه أيضاً فانه يطلّقها ويبحث عن زوجة ثالثة وهكذا ، وكم من النساء البريئات المتمتعات بأعضاء كاملة التركيب وأهلاً للحمل الطبيعي والولادة قد طلقهنَّ أزواجهنَّ لأنهنَّ ، حسب زعمهم ، لم ينجبنَ أطفالاً مع أنهنَّ لو تزوجنَ برجال سليمين وأصحاء البنية كنَّ قابلات للحمل . ولذلك يقتضي قبل مداواة عقم المرأة إن وُجد ، إخضاع الزوج أولاً لمعاينة طبية لمعرفة ما إذا كانت صحته جيدة وسالماً من الأمراض المعدية لنحكم بأنه قادر فعلاً على الانسال ، وإذا كان مريضاً يُعالَج الى أن يشفى شفاءً تامًّا ، واذا كان مرضه ميؤوساً منه ، فلا فائدة ترجى من مداواة زوجته .

وعلى كلٍّ فالطبيعة لها أسرار غامضة لا يمكن سبر غورها حتى للطبيب نفسه . ولهذا يتحتم على كلِّ امرأة مصابة بالعقم أن تنتظر مدة من الزمن بعد زواجها حتى إذا انقضت هذه المدة ولم تظهر فيها علامات الحمل ، أمكنها حينئذٍ مراجعة أحد الأطباء الاختصاصيين

ليرشدها الى ما يجب عمله . فكثيراً ما يتأخر الحمل سنين طويلة بعد الزواج ثم تحمل المرأة فجأة . وأعرف سيدةً مضى على زواجها ١٨ عاماً وكانت تتمتع مع زوجها بصحة جيدة . فبذلت كل ما يمكن من الطرق اللازمة والمساعي عند بعض الاختصاصيين ، لكن ذهبت أتعابها بدون طائل وبقيت عقيمة . ولكن بعد انقضاء تلك المدة الطويلة أخذت تشعر فجأة بأعراض الحمل وبحركة الجنين في أحشائها . فكان لهذا الحادث المفاجىء رنَّة فرح وغبطة لا توصف أفعمت قلبها وقلب زوجها وذويها معاً .

ولا ينكر أن بعضاً من النساء المتزوجات لا يكترثنَ كثيراً بالحمل ، بل سيان عندهنَّ مجيء الأولاد أو عدم مجيئهنَّ . على أن السواد الأعظم منهنَّ كما هو معلوم لاهمَّ لهنَّ ولا رغبة إلاَّ الحصول على بنين ، وقد يبذلنَ في هذا السبيل أعز ما يملكنَ تحقيقاً لهذه الغاية التي طالما شغلت بالهنَّ عن كل شيء آخر . ومن سوء الحظ كثيراً ما تفشل المرأة في تحقيق هذا الأمل المنشود بالرغم من مراجعة الأطباء الاختصاصيين فيعتريها إذ ذاك اليأس والقنوط . وقد تصاب حينئذٍ بالنوراستنيا ، أو اذا شئت فقل بمس من الخبل أو الجنون . على أن معرفة أسباب العقم وعلاجها قلما تبقى مستعصية ، بل هي تزول إذا اتبعت المرأة طرق العلاج القانونية التي يشير بها الطبيب .

أسباب العقم

١ — للعقم أسباب كثيرة متنوعة : نذكر منها في الدرجة الأولى السيلان الذي تنتقل عدواه من الرجل الى زوجته . ويقدِّر بعض العلماء أن هذا الداء الخبيث مسئول عن ٥٠ في المائة من حالات العقم ، وآخرون يعزون إليه تسبيب ٣٠ في المائة من العقم نفسه . ولهذا يجب أولاً معالجة السيلان ويتم الشفاء منهُ قبل الافتكار بمعالجة العقم الناتج عنه .

٢ — وهناك أيضاً الزهري : وهو داء معروف يعمل بدوره على تسبيب العقم . وإذا حملت المرأة وكانت مصابة بهذا الداء فكثيراً ما تصاب بالاسقاط من وجود سمّه في جسدها . والأطفال غالباً ما يولدون وقد ورثوا المرض من والديهم . ولهذا تجب معالجته معالجة كاملة قبل المباشرة بمداواة العقم . وإذا كانت المرأة حامل فيواصل تطبيبها طوال مدة الحمل ، فيما اذا كانت مصابة به ، دفعاً للإجهاض .

٣ — وبين موانع الحمل الأخرى : البدانة المفرطة لاصطحابها باختلال افراز الغدد الباطنية، وهذه تعمل على احداث العقم عند كثير من الناس . ويجب أن نميز هنا ثلاثة أنواع من البدانة : فالنوع الأول منها يظهر باكراً في دور الطفولة أو في دور البلوغ ، والنوع الثاني يبدو في المرأة الشابة المتزوجة حديثاً وذلك منذ بضعة شهور فقط ، وفي هذه الحالة تأخذ الوظائف الحيضية تضعف عندها مع الزمن . وأخيراً النوع الثالث الذي يحدث من البدانة المكتسبة نتيجة افراط التغذية .

٤ — مفعول التسممات بأملاح الرصاص والتبغ والكحول : لهذه أيضاً تأثير يُذكر في احداث العقم . أما من جهة تأثير المناخ ونوع الطعام والقرابة الأبوية Consanguinité فليس فيها ما يسبب العقم كما يتصوّر بعضهم ، وهكذا قل عن الاجهاد الجسمي والعقلي — بعكس الاضطرابات الحيضية التي لها على ما يظهر تأثير مباشر وثابت في احداث العقم نفسه . ولنأخذ مثلاً على ذلك امرأة عمرها بين ٢٠ و ٣٠ سنة ، أتاها الطمث دفعة واحدة وبصورة منتظمة في السن ١٢ الى ١٥ سنة ، وكانت الأدوار الشهرية عندها منتظمة دائماً . فهذه المرأة سيأتيها أولاد ٩٩٩ في الألف . بعكس المرأة التي يتأخر حيضها الى السن ١٦ — ٢٠ والتي تشعر غالباً باضطراب وانزعاج في جسمها مع آلام حادة نوعاً في منطقة المبيضين . فامرأة كهذه تكون بلا ريب أقل قابلية بكثير من الأولى في انجاب الأولاد .

٥ — اعوجاج الرحم أي انحنائه أو انحرافه بحيث ان فمه لم يعد متوسطاً : هذه الأسباب لا تعتبر فعلاً كافية لاحداث العقم إذا لم تكن مصحوبة بالتهاب في هذا العضو . والمهم في الامر أن يكون وضع الرحم في محله أي لا يكون منحنياً لا الى الأمام ولا الى الوراء . فاذا كان كثير الانحناء إلى الأمام لامس المثانة ، وإذا كان منحنياً إلى الوراء لامس المستقيم . وفي كلتا الحالتين يتغير وضعه الطبيعي ولا يتم الإلقاح . .

٦ — التهاب المبيضين ووجود أورام في الرحم : إذا كانت المرأة مصابة بالتهاب في المبيض أو في عنق الرحم ناتج عن دخول الجراثيم ، فهذه الالتهابات كثيراً ما تقضي على النسل . وهكذا قل من وجود أورام في الرحم نفسه كالورم الليفي (فبروما) مثلاً ، أو السرطان أيضاً . وقد تباينت آراء الأطباء حول هذه النقطة : فمنهم مَن يقول أن الفبروما لا يمكن أن تكون بحدّ ذاتها سبباً كافياً في منع الحمل ، وآخرون يرون أن وجود هذا الورم

عند المرأة يمنع وقوع الحمل . أما السرطان فوجوده في جسم الرحم ينافي وقوع الحمل على ما يؤكده فريق كبير من الاطباء الاختصاصيين ، أما الذي ينمو في عنقه فلا يكون مانعاً من وقوع الحمل نفسه ؟

٧ — الأسباب النفسيّة العقلية : وهي تسبب عند بعض الأشخاص عقماً بإحداث حالة نفسيّة تجعل مجرّد الافتكار بالجماع يسبب تشنجاً في الأعضاء التناسلية والعضلات المهبلية الخ، مما يجعل الجماع أمراً متعذراً يورث العقم . ويشاهد ذلك عادةً في حالة التنافر التناسلي الذي ينتهي بالطلاق غالباً .

٨ — داء السل والبيلة الآحينية Albuminurie والداء السكري : لداء السكري والبيلة الآحينية تأثير لا ينكر في احداث العقم - بعكس السل فانه لا يمنع بوجهٍ عام من تسبيب العقم عند المرأة . ولكن الأفضل لهذه أن تكون عاقراً من أن تنجب أولاداً وهي مصابة بهذا المرض .

٩ — وجود نقص أو تشويه في أعضاء الحمل : ومن موانع الحمل أيضاً وحدوث العقم إصابة المرأة منذ ولادتها بنقص أو تشويه في أعضاء الحمل مما يقف الطب حياله عاجزاً عن اصلاح النقص الموجود . وهكذا قل عن ضيق الحوض الذي يضطر الطبيب حياله الى اجراء العملية القيصرية التي تنجح في أغلب الأحيان .

١٠ — كبر السن : المعروف أنه كلما دنت المرأة من سن اليأس قلّت الفرصة أو ضعف الأمل في حملها ، غير أن أغلب السيدات لا يردنَ أن يفهمنَ ذلك !

وقد أثبتت الاحصاءات الرسمية أن العقم في النساء يتراوح بين ١٤ و ١٦ في المائة . وبعبارة أخرى أن من كل ١٠٠ امرأة ١٤ الى ١٦ لا يصرنَ أمهات أبداً ، بينما تتراوح نسبته في الرجال بين ١٨ — ٢٠ في المائة .

ما الذي يمكن عمله لعلاج العقم : يتوقف هذا العلاج على معرفة السبب أو الأسباب الحقيقية التي أدّت الى هذا العقم والعمل على إزالتها إن أمكن ذلك . أما إذا بقيت الطرق العلاجية والدوائية عقيمة فلا مندوحة إذ ذاك عن تجربة التلقيح الصناعي باجراء حقنة صغيرة لتقابل المادتين المكونتين للجنين واتحادها معاً . وتفيد هذه الطريقة خصوصاً عند النساء اللاتي يصاب جهازهنّ التناسلي بتشنجات أو انقباضات تمنع المادتين المذكورتين من الدخول في رحم المرأة ، أو في حالات أخرى أيضاً مثل وجود ناسور بولي أو ضيق في المجرى أو ارتخاء الزوج الخ توجب تلقيح الزوجة صناعيًّا إن كانت تروم الأولاد ، غير أنه يجب القول أن هذه الطريقة لم تصادف النجاح المطلوب الاّ نادراً .

بيروت الدكتور عبده رزق

انتظار

أي طيف في صفحة الجوزاء   يتهادى بالحلة الحمراء
أخيال من عبقر أم شتيت   من أمان منثورة كالهباء
أم بقايا الانوار في غسق اللـيـ   ـل طوتها مطارف الظلماء ؟
ذاك ركب المغيب ينهب ركضاً   باختيال المدلّ صدر السماء
أطرق الكون حين آذنت الشمـ   ـس ببين كمدنف من عياء
وترامى الصفصاف من مضض ينزو   كشلوٍ مضرج بالدماء
وتهاوت كتائب الطير تطوي   في الفضاء البعيد رحب الفضاء
لا تبالي والريح تعصف في الأفـ   ـق كيمٍّ عوادي النكباء
كلما دبَّ في الجناح فتور   أو توانت من سورة الاعياء
ذكَّرتها الحمى لواعج شوق   وحنين لرؤية الأنباء
ودعاها الهوى المبرّح في الصد   ر فتُلقي زمامها عن رضاء

***

غمر الارضَ بالكآبة ليلٌ   مدلهم يجيش كالأنواء
فاستتر الفضاء إذ نشر الليـ   ـل جناحاً في شملة سوداء
واستطابت حلوَ المنام عيونٌ   أجهدتها بهارج الأضواء
النفوس الظمأى يهدهدها الشو   ق فتغفو على نشيد الرجاء

والفؤاد الجريح يطمعه الوجد   بوعدٍ من كاذب الاهواء
نام من في الوجود غير كئيب   يتلظى من وحشة وعناء
ليت شعري من ذا أثار شبا الوجـــد بصدر الحسناء عند المساء
درجت والظلام منعقد الثو   ب بذعرٍ كالحية الرقطاء
واستترت ببرقع من ظلامٍ   حين راحت عن أعين الرقباء
ما دهاها وقد تماسكها اليأس   فخارت كريشة في الهواء
أعرتها لواعج الألم المرّ   فناءت من نهشة الأدواء
أخذت ترمق الفضاء وترعى   بالتياع جوانب الجوزاء
وهي حيرى من الوساوس نهب   لسهام الاهواء والأرزاء
تتلوّى من الأسى كنزيفٍ   صدمته حرافة الصهباء
ليت شعري ما تبتغي حين راحت   ترمق النجم في عنان السماء
أتراها تستطلع النجم عما   خبأته لها صروف القضاء
أي شيء عند السماء لمن با   ت يرجي السماء غير ازدراء
يضرع المرء حين يدهمه الخطـــب ويذري مدامع الضعفاء
ويمدُّ اليدين مدَّ ذليلٍ   مستجيراً في النكبة العسراء
غير أن السماء عن كل شكوى   لا تعير الحزين أي اعتناء

***

سئمت وحشة السماء فولّت   بجفاء وجهاً الى الدأماء
علّها تستبين في البحر أمراً   كتمته جوانب الجوزاء

فاذا بالنداء يخنقه الموج ويخفي المحيط كل نداء
وتضيع الآمال في لجج الماء وتُطوى الاخبار طي الخفاء
كم حزين أتى الشواطئ يستجلي ببشر غوامض الأشياء
يسأل البحر عن حبيب تناءى مستعيداً أيام عهد اللقاء
وينادي العباب هل من رجاء في لقاء الحبيب بعد التنائي
أي شيء سوى التبرم يُتلى في زفير المحيط من أنباء؟!
يبعث البحر نفثة الألم المرّ كمضنى يجود بالحوباء
ثائرٌ صاخب يزمجر هدّاراً ويرغي من قسوة وجفاء
تتهاوى أمواجه حين تهوي كخيولٍ في حومة الهيجاء
ولصوت الرياح أنةُ شكوى من حزين في لجة الظلماء

***

ضاق صدر الحسناء ذرعاً فراحت تترامى شطر الحمى من عياء
تترامى من الاسى كذبيح أقصدته رماية الاعداء
شفها أن يضيع في صخب الموج لغاها وينطوي كالهباء

دمشق عدنان مردم بك



الى السعادة

لا حياة للزهرة بغير ماء . . فمنه تستقي ، وعلى روائه تنمو وتزدهر . . واذا انقطع معينه عنها ذبلت ثم ماتت . .

والصحة للسعادة ، كالماء للزهرة . . فلا وجود للسعادة بغير الصحة . . وكلاهما قرينتان لا يفترقان . .

وأنت تجد الانسان القوي المعافى ... يشع للناس من حوله بهجة هي نور السعادة الكامنة في نفسه . . وما مثله في ذلك إلا كمثل الشمس تشرق على الدنيا فتملؤها بالضياء .

ومن النادر أن تصدم الاحزان الرجل الممتلىء صحة . . كما انه من العسير أن تسعد الافراح الشخص العليل الذي يعاني آلام الاسقام . . وليس هذا على الناس بغريب فان العامل الاساسي الاول للسعادة هو الصحة .

فيا أيها المرضى العليلون . ! أنشدوا الصحة أولا . . وبعدها تأتيكم السعادة طائعة تجرر أذيالها .

والصحة ليست بعيدة عنك . لانها تولد معك . . وهي جوهرة على راحتيك . . إن لم تصنها خطفها المرض منك .

وصيانة الصحة أمر سهل ، لا يتطلب منك أكثر من أن تلم ببعض الثقافة الصحية . . وان تنفذ ما تعرف وتطبقه في حياتك اليومية ، فيتكون لديك من ذلك مجموعة عادات صحية تصبح جزءاً متمماً لحياتك لا غنى لك عنه

ومن العادات الصحية الهامة . . أن تغسل أسنانك عند ما تستيقظ في الصباح . . وتشرب قدحاً من الماء على الريق . . وان لا تقل كمية الماء الذي تشربه يومياً عن اثنى عشر كوباً وتأخذ حمام الشمس كل يوم . . وتتبع في تغذيتك ، الاصول الصحية بأن تكثر من أكل الخضر والفاكهة ومستخرجات الالبان وتقلل من الخبز واللحم . ولا تسرف في السهر . . ولا تدخن . . ولا تشرب القهوة ولا الشاي واستعض عنهما بالكاكاو أو الانسون .. وكن مسروراً دائماً بلغت ما بلغت متاعبك .. وتراكمت ما تراكمت عليك الهموم .

واحرص على أن تفعل كل هذا . ثم باشر نوعاً من الرياضة البدنية كل يوم . . تجد أن الصحة قد ذوبت لك في كأسها رحيق السعادة .

فهمي عطا الله

هل هذبتنا الحرب ؟؟

إن الحرب قد انتهت . وليست بأول مرة في دورة الحياة تنتهي فيها حرب ، وسوف لا تكون آخر حرب يشهد الانسان نشوبها واحتضارها . ولئن هللت فئة من الناس عندما أذيعت بشائر السلام وافتنت في التعبير عما تكنه من الفرح المكبوت والغبطة المستكنة التي لا تخلو من كدر وغم ، فإن فئة أخرى ألقت السلاح عنوة ، وهي تمني النفس بنشوب حرب أخرى فتدرك فيها ما فاتها من المغنم والثأر . ولئن وجد من يبغض الحرب ويمقتها ويتشاءم منها خيفة أن تقضي على الحضارة الانسانية العريقة التي ساهمت في بناء صرحها الأمم كافة ، وتطمس في الانسان الشعور باحترام وتقدير حياة نظرائه من البشر ، وتجعل الناس يعيشون في المجتمع متنابذين متباغضين ، استحكمت بينهم أسباب العداء ، واستبدت الأحقاد والضغائن بعواطفهم وأفكارهم ، ويعتبروها جنوناً ينتاب الشعوب ، كل بضع سنوات ، فتقذف الى الميادين ، في البر والبحر والجو ، خيرة أبنائها ، وأكثرهم شجاعة ، وأوفرهم قوة ، وأعظمهم إحساساً بالواجب والنظام والطاعة ، دون أن تحسب حساباً للخسائر التي تمنى بها ، الناجمة عن تدمير مرافق الحياة ، ومصرع الموهوبين والعباقرة من الجنود ، ويسخر ممن يتشدقون قائلين ان الحروب تثار لصيانة المبادىء والمثل العليا والحق المطلق ، ولولا هذه الاعتبارات لما نشبت حروب ، ولا أزهقت أرواح ، ولا حلت خسائر بأحد ، ويخامر هذا النفر من المفكرين أسف عظيم عندما يرون الناس يؤمنون بأولئك الدجالين الذين يروجون هذه الأكاذيب ، ويدافعون عنها بحرارة ، حتى تنطلي حيلتهم على الكثرة الساحقة من البشر .

زد إلى ذلك ان الحرب بما يلازمها من أخطار جمة ناتجة عن الموت بالسلاح أو الموت جوعاً ، تصرف الانسان الموهوب عن الحياة الفكرية الهادئة ، وتهوي به من الأجواء التي يحلو له أن يحلق فيها إلى درجة الحيوان الأعجم الذي لا هم له إلا أن يشبع بطنه ويروي ظمأه وينفر من الخطر اذا ما داهمه بغية التمكن من الاستمرار في قيد الحياة . وإن من نصر ، بالغة ما بلغت عظمته وأبهته ، يعادل الضحايا البريئة التي أذلها الواجب واقتيدت الى الجبهة

فقضت نحبها . وان الحرب تضطر الانسانية ، من زمن لآخر ، أن تقف عن العمل الهادىء المثمر ، وتودع حياة السرور والمرح والراحة ، والبيت والأحباب والحقل ، وكل ما تتعشقه النفس الراضية المطمئنة . وما من ناحية من جميع النظم الاجتماعية ، الحقوقية والاقتصادية والأدبية والسياسية ، تبقى بمعزل عن أثر الحرب . وإن جميع أسس الحياة ، من حرية وفكر وعمل ونظام وما لا يحصى من الأعمال والقضايا المتشابكة المتنوعة ، تصاب بهزة عنيفة تبعدها عن مجال الاستقرار والطمأنينة . ولئن كانت الحرب تستنزف النشاط الإنساني بأسره ، فإن للانسان مندوحة عنها ، وذلك بما توفره له الحياة في كل آونة من مشاريع اقتصادية وصحية وأدبية بحاجة إلى انجاز أو اتقان . وإن السلام الذي تنشده النفوس الرضية الصالحة ، لن ينبثق عن الحرب كما يعقب النهار الليل ، والصفاء الكدر ، والسكينة العاصفة .

وهناك فريقٌ آخر يرى أن الحرب ناموس طبيعي ، وسليقة إنسانية موروثة ، وسنَّة ترتكز عليها دعائم الحياة ، وأن كل ما يحل بالبشر من خسائر لا يضاهي أو لا يقاس بالفضائل التي تنجم عن الحرب . وأن الطبيعة في عرفهم تأبى سلطة الضعفاء وتنشد دائماً سيادة العنصر القوي ، وإنها تبتهج بالحرب وتسر للموت وتحسب ذلك دليلاً على كمون شرارة الحياة متأججة قوية في الإنسان ككمون النار في الحجر . وما من شعب يؤثر الراحة على التعب ، والسلام على الحرب ، إلاَّ كان ذلك نذير الانحطاط والانقراض والفناء . وأن الانسان في قرارته يستشعر فرحاً لا يوصف إذا ما ثابت اليه غرائزه العريقة في القدم وهبت من مكامنها عند وقوع الخطر ، فانصرف يصارع الموت الذي يراه متجسداً في إنسان آخر على صورته ومثاله . وليس السلام الدائم الذي تنشده النفوس الباخعة الضعيفة إلاَّ محاولة أثيمة ترمي الى تجريد الانسان من السجايا الشريفة الفاضلة . وما من إنسان أوتي نصيباً من الذكاء والنباهة ، يحاول أن ينكر أثر الحرب في خلق الفضائل النبيلة التى تتسم بالصلابة والقوة والحيوية ، كالشجاعة والاقدام والتضحية وإتيان الأعمال التي تذهب مذهب الأساطير . فهذه السجايا لا يقدر لها التفتح والنمو والازدهار إلاَّ في بيئة تشهد الحروب آناً بعد آن وتبلوها وتتذوّق حلوها ومرها وخيرها وشرها . وأن العناية الإلهية التي تكلؤنا بعطفها، لا تني تتمنى أن لا تنفك الحروب تنشب لأنها تساعد على ولادتنا ولادة جديدة ، ولأنها تجرف ما يترسب في أعماقنا من الأخلاق المتصفة بالرخاوة والجبن والخبث والمكر … وما هبت ريحها على أمة من الأمم إلاَّ جمعت شمل أبنائها بعد تفرقهم ، وشدت أزر العصبية القومية بعد تفسخها ، ورفعت الناس فوق مستوى المشاكل الصغيرة والأمور التافهة التي

ألفوها طوال زمن السلام وبالجملة فان الحرب نزعة كائنة فعلاً في النفوس البشرية ، ملازمة للانسانية لا تفارقها ، كما أن الظل لا يفارق الجسم .

***

ليست الحرب حدثاً حديثاً في حياة الانسان وغير الانسان من نبات وحيوان . فقد وجدت منذ أن شاعت الحياة في الكون ، ولما تزل ناشبة حتى يوم الناس هذا . فالنباتات التي تذبل ثم تموت لا تحصى ، لأن نباتات أخرى طغت عليها وامتصت ماويتها وأهلكتها . ونرى حيوانات جهزتها الطبيعة بكافة أساليب الفتك ، من ظفر وناب ، تفتك بحيوانات أخرى لا سلاح لديها يدفع عنها الشرور . فها هي ذي الأرض تذخر بالحشرات الكاسرة والزحافات الكاسرة والطيور الكاسرة والحيوانات الكاسرة ، والأسماك التي تسبح وتعيش في الماء كاسرة . ومن خصائص هذه الحيوانات المفترسة إنها لا تتلف ما لا يفيدها في تغذية جسمها وحفظ ذاتها من الفناء . أما الانسان فانه يقتل ليقتات ويتدثر ويتزين ودفاعاً عن نفسه وصون جسمه من الأذى ، وليتعلمً ويلهو ويقتل أخاه الانسان كي يحفظ من التعدي ما يملك من عرض أو مال أو ملك .

فهي الحرب في جوهرها عادة مألوفة وسليقة موروثة في الانسان ؟ إن الحرب تمتد أصولها في نفس الانسان إلى أعماق سحيقة ومتأصلة كأعظم الغرائز التي لا فكاك له من التأثر بها والاستجابة لدواعيها، وإن التعليل الديني والتعليل الاحيائي (البيولوجي) يتفقان على هذا الرأي. فقد بدأ النزاع بين البشر عند ما كان عددهم لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة . فمنذ ذلك الحين والأرض ما برحت متعطشة الى الدماء . واذا نظرنا على ضوء التعليل الثاني — البيولوجي — نلاحظ أن الانسان الأول عاش في بيئة مفعمة بالأعداء، كتب عليه أن يصارعها ويقضي عليها كي يستتب له الأمر ويجد إلى البقاء سبيلاً ويحظى براحة الجسم وطمأنينة البال . عليه أن يسعى جاهداً كي يقي جسمه العوامل الطبيعية من حر وبرد ، ويصارع الحيوانات المفترسة التي تقضي عليه إن لم يقض عليها ، ويقف وجهاً لوجه أمام أبناء جنسه عند ما تصطدم الرغبات . وكان مجال النزاع لا يتعدى دائرة مطالب الجسم الأولية كالغذاء والمأوى الصالح والرفيقة التي تدفعه لحيازتها والاستمتاع بها قوى مجهولة عنيفة . فالحرب إذاً فرضت على الانسان البدائي فرضاً وتعتبر سبباً جوهرياً أساسياً للبقاء حياً .

والدليل على تأصل نزعة الحرب في الانسان ، وعمق جذورها في مطاوي نفسه ، وقدمها تأهبه الدائم لخوض غمارها ، واستبساله في ميادينها ، واندفاعه لتأييدها ، والحض عليها ،

وبذله المال والنفس طائعاً في ساحاتها ، ولا عبرة فيما يقول بعد ان تضع أوزارها ، ويكتب له أن يعود لبيته وأهله سليماً معافىً . ما أكثر الذين ينتقدون كل عمل تقوم به الحكومة ، وكل نظام تنوي السير عليه ، وكل تجديد تريد أن تدخله في جهازها لتصلح أمور الناس ، وما أقل ، لا بل ما أندر ، الذين يخرجون على أوامر السلطة ، ويتخلفون عن استجابة ندائها عندما تعلن حرب . ساعتئذ تدب النخوة في النفوس ، وتفور الدماء في العروق ، ويسري النشاط في الأجسام . والويل لمن يحاول أن يثبط الهمم ، ويبذر بذور الاحجام عن اقتحام الأهوال ، ويذكّر بالعائلة من زوج وولد ، ويفتنهم عنها بإيثار الراحة والطمأنينة والحياة على المتاعب والقلق والموت ! ومن يجرؤ ساعتئذٍ أن يقول الهزيمة فضيلة والثبات جنون ؟؟!! .

ولو تأملنا أعلام الدول قاطبة ، لرأينا أنها لا تخلو من اللون الأحمر . والى مَ يرمز اللون الأحمر ؟ إلى الدم . فكأنَّ الأمم تعترف في أعماقها أن الحرب حالة لازمة ، وانها لا تسمو وتتقدم إلاَّ اذا ظلت هذه الجذوة متأججة متقدة في النفوس وإن دفعت ثمن هذه العقيدة دماء من أجسام أبنائها وأبناء غيرها . ولنقرأ الأناشيد الوطنية : كم تتكرر لفظة حرب وكم تعاد لفظة دم ؟! وهل يقصد من هذا الترداد والتكرار إلاَّ إثارة النخوة وإلهاب النفوس وإيقاظ ما كمن من غرائز القتل والفتك ؟! .

هل تعتبر الحرب مظهراً جلياً من مظاهر إنكار الذات ، أو تعبيراً فذّاً عنيفاً من التمسك بأهداب الذات ؟ لئن تكن الحرب سليقة موروثة في الانسان ، فحب الحياة أقوى الغرائز قاطبة . ويستحيل أن نتصور إنساناً سليم الأعصاب . سليم العقل والبدن ، يخطر له أن يوازن يوماً بين الموت والحياة ، وأيهما أثمن في نظره . وهو لا يخوض غمار حرب ، بالغة ما بلغت شدتها وفظاعتها ، إلاَّ عند ما يؤمن إيماناً لا يعتوره شك ، انه مستهدف لخطر عظيم غير محمود العاقبة . وليس الفرار غير ضرب من التمسك القوي بالحياة . وإنما يلجأ اليه من يوقن أن أعصابه سوف تخونه في ساعة الشدة وليس لديه ذخيرة كافية من قوة النفس والعضل على مجابهة الطوارىء . وربَّ قائل يقول : ما بال الذين حكم عليهم بالأعدام يتقدمون بملء ارادتهم ، ويوضع الحبل في أعناقهم دون أن يبدو حراكاً ؟ لماذا لم يحاولوا التملص من قبضة الموت وهم في ساحة الموت ؟ لماذا لم يدفعهم حب الحياة الى التمرد على نصوص القانون ؟ ان هؤلاء لم يتقبلوا الموت مختارين كما يبدو لنا ، بل إن الذي قادهم الى الموت هو الرغبة في حياة فاضلة ينعدم فيها المنافس والعدو . وإنهم ما ادخروا وسعاً كي يدفعوا الموت عن نفوسهم . وما اتخاذ المحامين إلاَّ وسيلة جديدة مبتكرة يلجأ إليها المجرم ، علّها تنقذه من

براثن الموت . إذ أنه يؤمن ان السلاح لا خير فيه إذا ما فكر أن يشهره في وجه الدولة التي صبت عليه كل ما تملك من قوة السلاح ، وقوة القانون ، وقوة الرأي العام .

***

والحروب في العصور القديمة تختلف الاختلاف كله عن الحروب التي وقعت في هذا القرن أو التي سوف تقع في السنين المقبلة . ذلك ان الحروب القديمة كانت محدودة من جميع النواحي وكافة المظاهر، هي محدودة بالجنود الذين يخوضون غمارها ، ومحدودة بالبقعة التي تدور فيها المعارك ويقرر فيها مصير أحد الجيشين ، ومحدودة بالخسائر المادية والروحية ، ومحدودة بالزمن الذي تستغرقه . أما الحروب في هذا القرن ، وخاصة الحرب الأخيرة ، فلا يعرف معرفة تامة عدد الذين اشتركوا فيها ، مباشرة أو مداورة ، وكم بلغ عدد الرجال والنساء الذين ساهموا فيها ، ولم تدر رحاها في بقعة محدودة من الكرة الأرضية بل شملتها بأسرها ، برّها وبحرها وجوّها ، ولا يستطيع أي كان أن يقدر الخسائر التي منيت بها البشرية طيلة هذه المدة ، إذ لم تقتصر الخسارة على الأرواح ، بل حلت في جميع مرافق الحياة من صناعة وتجارة وزراعة ، وشملت جميع أنواع المواصلات من برية وبحرية وجوية ، وساهمت فيها كل قوى الأمة ، من مادية وروحية وفكرية ، وكثيراً ما نشبت حروب في الأزمنة القديمة انحصرت ضمن البلدين المتحاربين ولم يتجاوز صداها البلدان المجاورة . أما اليوم فيتعذر ، لا بل يستحيل ، حصر الخلاف أو كتمانه ، فسرعان ما ينتشر نبؤه في جميع أرجاء المعمورة .

***

ويقيني أن للحروب القديمة أثراً في النفوس أقوى من الأثر الذي تخلفه الحروب الحديثة في نفس المحارب . لا لأن تلك أعظم وأفظع من هذه ، بل لأنها توفر للعين مشاهد مؤلمة ، فظيعة ، فظة ، ليس من طبيعة الحرب الحديثة إيجادها ، وذلك يعود الى نوع الأسلحة واختلافها عن الزمن القديم .

فالحرب الحديثة لا تشبع غريزة الضراوة الكامنة في الانسان ، لأنه لا يرى أجساماً تتلاحم وتتناحر وتتصارع وتقتتل وتتساقط ، ولا يرى الارواح تزهق ، والدماء تراق فيشعر بقشعريرة وهول وذعر مما رأى رأي العين . فالمحارب الذي يشك بالرمح صدر خصمه ويرديه قتيلاً ، يرى مشهداً لن ينساه أبداً ، ويختلف كثيراً عن الطيار الذي يلقي القنابل

من ارتفاع شاهق على مدينة دون أن يرى بوضوح ما دمر من دور عامرة ، وما أزهق من أرواح بريئة وغير بريئة ومحاربة وآمنة. ومع كل ما امتازت به الحروب القديمة من الفظاعة والوحشية ، وما اشتهرت به الحروب الحديثة من الاتساع والشمول ووفرة الخراب وكثرة الموتى ، ورغم ما اكتوت به البشرية من حروب لا يحصيها عد ، فهل كانت الحروب ، قديمها وحديثها عاملاً فعالاً في تهذيب الجنس البشري ؟

***

إن التهذيب يقوم على مبادىء صحيحة تستهدف إصلاح الفرد والجماعة وتكييف سلوكهما وفق هذه المبادىء . فهل جاءتنا حرب ما، بدون استثناء ، بمبادىء ترمي الى تهذيب المرء وتطهير نفسه من أدران البغض والحسد والخبث ؟ في الواقع انه ما من حرب نشبت قديماً أو حديثاً تجاوزت غايتها الشؤون السياسية والعسكرية . أما الحروب التي تثار في سبيل إقرار مبادىء ، فقلما تعرفها الانسانية . والنبيه النبيه من لا يؤخذ بأساليب الدعاية القائمة على الكذب والايهام والمغالاة في تصوير الأخطار المحدقة كل ذلك كي تستثير أفراد الأمة ويصبحوا أداة طيعة في يد الدولة تحركهم في ميادين القتال كما يحرك لاعب الشطرنج أخشابه . ولم يأن لنا أن ننسى الخطب والأقوال التي كان يوجهها رؤساء الحكومات الى الشعوب التي يحكمونها ، يذكرونها بالواجب الملقى على عاتقها إزاء الأمة خاصة وتجاه الانسانية عامة،وأنها حامية المدنية وأسمى المبادىء والمثل ، وأن العدو البربري إذا ما انتصر ، فسوف يقوّض أركان الحضارة ويجعلها أثراً بعد عين !!! . وهل وعظتنا الحرب بأهوالها وأوبئتها ومجاعاتها ووحشيتها ، أكثر مما وعظتنا الديانات والفلسفات والأخلاق ؟ لا أظن . ان الحرب بويلاتها التي لا تحصى ولا توصف تولد في قلوبنا الخوف والحذر من حروب جديدة تكون أشد هولاً مما سلف ، لكنها لا تقوى على انتزاع ما يخامر النفوس من البغضاء والحقد والحسد والطمع وكافة النزعات الشريرة التي تتمخض عنها الحرب . فهذه الكتل البشرية ، التي تدعوها جيوشاً ، التي تتحرك وتسعى لإبادة بعضها بعضاً ، لا تخضع للقادة أكثر مما تخضع للمطامع والغرائز الوحشية المسيطرة على نفس كل قائد وكل جندي . وعند ما نؤمن ونقول إن الحرب قادرة على ابطال الحرب ، فكأننا نعني ونؤمن بافلاس الدين ، وكل قيم اخلاقية تعد بمثابة صدى على جانبي الطريق يسترشد بها الناس الذين يسيرون ميممين الحياة الفاضلة التي يخيم السلام الأبدي في ربوعها ، ولماذا لم تعمل الحروب التي نشبت في الأزمنة الغابرة على تهذيب الشعوب التي منيت بويلاتها واصطلت بنيرانها ؟ ومن الثابت أن الشعوب التي

كتبت تاريخها بالدمع والدم، هي التي تأصلت وترعرعت النزعة العسكرية في قلوب أبنائها. ولم تعد الحرب في نظرهم نكبة، بل فرصة سانحة لتوحيد الصفوف ودفن الأحقاد ودعم العصبية القومية التي أصيبت بالانحلال والتراخي في زمن السلم وليست فترة السلم الا فرصة تستجم بها الشعوب وتتأهب للقيام بحرب تالية. ومن جهة أخرى فاننا لا نستطيع أن نصم الانسان باللامبالاة التامة، ونقرر أن العبر تمر به ولا يعتبر، وتحدث الاحداث ولا يتعظ، ويرى الدمار والدماء والثكل واليتم والمجاعات والأوبئة ولا يكتئب.

***

مما لا مشاحة فيه أن المدنية الحديثة التي ورثت عن الماضي حضارته ودياناته وفلسفاته وعلومه، ومثَّلتها جميعها ونمّتها وجلت غوامضها، قد عجزت عن استئصال النزعة الحربية من قلب الانسان، لكنها هذبت مشاعره، وقلمت أظافر مطامعه، وكسرت حدة ضراوته. ذلك بأن الحياة الاجتماعية وما تعتمد عليه من قوات أمن داخلي، ومحاكم على اختلاف درجاتها وأنواعها، وقوانين متنوعة تشمل سائر نواحي النشاط الانساني، قد وقته شر الناس، وسهرت على راحته وسلامته في الليل والنهار، في المدن وخارجها. والبيوت التي يقطنها تشتمل على معظم مرافق الحياة، وتوفر له كثيراً من أسباب الراحة، كفته مؤونة صراع العناصر الطبيعية، واكتظاظ المساكن، واتساع الشوارع في المدن وانارتها بالغاز أو بالكهرباء، بعثت الطمأنينة في نفسه وجعلته بمأمن من كل شر يفاجئه.

***

ولن تصبح الحرب وازعاً ما دام المؤرخون يؤرخونها على النحو الذي نشاهد، وما دام المربون في المعاهد والكتّاب في المؤلفات والصحف والمجلات، لا ينفكون يلقحون عقول الناشئة والقراء بالجنون القومي والمطامع القومية وكره كل ما هو أجنبي، صالحاً كان أم طالحاً، وأن المجد العسكري لا يضاهيه مجد في الدنيا. ولو شئنا توجيهاً صالحاً بغية تنشئة جيل يشعر شعوراً إنسانيّاً، لوصفنا هول الحروب وفظائعها، وحدثنا باسهاب عن الملايين من الشبان الذين ماتوا في ميادين الحروب وتركوا في العراء فريسة لطيور الفضاء وكواسر الغبراء ودود الثرى. ووصفنا وصفاً دقيقاً ما أصاب المدن من الخراب، والمرافق العامة من الدمار، وما حلّ بالبشر من الأوبئة والضيق والفقر. وهلاّ التفت الروائيون ووصفوا لنا الاسر المنكوبة وحدّثونا عن بؤسها وحزنها؟!!.

إن القوانين والسجون والعقوبات قد قللت كثيراً من حوادث الإجرام في العالم ، لكنها لم تقف على استئصال شأفة الروح الاجرامية . فمتى ما أنس المجرمون فطريًا تهاوناً واستهتاراً في ادارة الدولة ، عادوا لايقاع الأذى بغيرهم . وهكذا فالمعاهدات والمؤتمرات الدولية والاتفاقيات الاقتصادية والعسكرية . . . . تستطيع أن تمنع نشوب الحرب مدة من الزمن ، لكن ليس الى الأبد . فإلامَ يحتاج البشر لقمع النزعة الحربية في الإنسان ؟

***

إن الحرب أزمة روحية قبل أن تكون أزمة اقتصادية أو عسكرية . فالناس لا يقتتلون الاّ بعد أن تكون خلت نفوسهم من المحبة والروح التعاونية والنزعة الصادقة للسلم . فالإيمان بالدور الذي تستطيع أن تضطلع به القنبلة الذرية في إبطال الحروب ، وانها سوف تكون بمثابة العصا السحرية القادرة على توطيد دعائم السلم الدائم ، إيمان فاسد . ذلك أننا نسلّم بافلاس الانسان من القوى الروحية والنزعة الانسانية المثالية ، وانه عنصر حيواني خالص لا تؤثر فيه الاّ القوى المادية الغاشمة . وهب أصبح هذا السلاح الفتاك في متناول كافة الدول ، ألا يصبح عندئذٍ تعادل بينها في القوة . فتعيش منكمشة ، حذرة متيقظة ، لا يفتر لها طرف عن مراقبة أعمال سواها . وهل يشعر بلذة النوم ذلك الذي يتوقع مجيء اللص الى بيته بين دقيقة وأخرى ؟

إنني لا استطيع أن أتخيل عظم الحرقة التي يتكوى بها قلب أشعياء النبي ، لأن نبوءته التي أطلقها منذ آلاف السنين لما تحقق : لقد رجا أن يرى الناس «يطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل ، تستعمل في سبيل مقاصد شريفة في ظل الأمن والسلام» فماذا عساه أن يقول لو أطلّ من سمائه في هذا العصر فرأى الناس قد طبعوا كل يملكون من مناجل ومحاريث وفؤوس ... لا سيوفاً ورماحاً بل بنادق وقنابل ومدافع . . . وغيرها من آلات القتل وأسباب الدمار التي لم تراود ذهن أشعياء ولا خياله !

***

ليت شعري هل يكتب للبشرية في الزمن الآتي أن تسمع ملاك الرب يترنم قائلاً : «المجد لله في الأعالي ، وعلى الأرض السلام ، وفي الناس المسرة !» .

صافيتا (سوريا) الياس يعقوب

ابــني

إلى مهدك الميمون يمناي تمتدُّ	رجاءً ، ويثنيها مشيبي فترتدُّ
رجاءٌ ويأسٌ ، حرّكا فيك ساكني	ومن عجبٍ أني بالاثنين أعتد
أنا البحر، لاأدرى هل الجزْر نافعي	أم النفع أن يمتد من جانبي المد ؟
دعاك شبابي قبل أن يزمع النوى	ولكن أراد الله أن يبطىء الرد
وجئت على شيبي فلم أدر هل أنا	أبٌ لك، ياحُلْمَ الأمانيّ، أم جدٌّ ؟
بنيّ وشيبي ، هل سيضعف فيكما	رجائي ، أم يقوى بضعفي ويشتد ؟
وهل منكما لي مَخلَصٌ، أم كلاكما	عدوي، الذي ما من صداقته بُدُّ ؟
وهل ما تراخى من ليالي ينتهي	كما مرَّ، أم يبيض منهن مُسوَدّ ؟
بنيَّ ، حياتي ذات حدٍّ ، وإنما	حياة الهوى الروحيّ ليس لها حد
بنيّ، ألا اسمعْ لي فغيرك سمعه	يكاد إذا ناديته بعدُ ينسد
وصاياي شيءٌ واحدٌ ، فاحتفظ به،	ولا يشغلنْك اللهو عنه ولا الجد
بناتيَ باناتي ، فكن أنت طائري	ومُدَّ لباناتي جناحاً ، هو الود

شاعر البرارى

الكيمياء عند العرب

وجابر بن حيان

رأيت أنْ أطْرُقَ هذا البحثَ لأمرين : الأمر الأول أن أُثْبتَ لقومي اعتراف الغرب ، بفضل علماء العرب ، في تقدم علم الكيمياء . والأمر الثاني أن أخاطب قومي العَرَبَ فأقول : — إذا كان العربيُّ ، فيما مضى من الزمان ، أمهرَ علماء الكيمياء في العالم ، فما الذي يمنعه من إرجاع هذا الفخر اليه مرة أخرى ؟

إنَّ أبا موسى جابرَ بن حيان ليس بأقلَّ قدراً من « دلتن » و « لفوازيه » و « بويل » و « اشتال » وغيرهم من العلماء ، فإن لم يَكُنْ أفضلَ منهم ، فهو مساوٍ لهم بلا جدال . أليس من الممكن أن يقومَ في العرب رجالٌ عظامٌ يجارون السير إرنست رذرفورد والسير تومس والسير وليم بوب فيعيدون للعرب مجدهم الغابر في علم الكيمياء ؟ لم يك العربيُّ بالمصلي في التصور الكيمياوي بل كان المجلي ، وكان الأسبق ، وكان عليه المُعول .

مهما تقدمت العلوم الطبيعية في هذين العصرين الأخيرين ، فإن الآراء الطبيعية وحدها ليست بكافية ، بل تحتاج الى مهارة وتدريب ، لأن كل تقدم في هذه العلوم ، يجب أن يكون ذا أساس متين ، ليُبنى عليه ومنه يتدرج الى الكمال . إذا شاء العرب ، وهم أصحاب الهمم العالية ، والغيرة والحمية ، أن يتفرغوا لدرس العلوم الطبيعية ، فعليهم أن يرجعوا إلى ما أخذه عنهم علماء الغرب ، فإذا ما نبغوا في هذه العلوم ، لما فيهم من الاستعداد العجيب ، شاهدنا مرة أخرى ، طلاّب الغرب يقصُدون جامعات العرب ، لدرس العلوم الطبيعية على أساتذتها الحقيقيين الأصليين .

لقد وُجِدَ علم الكيمياء في أول ظهور الاسلام ، لأنَّا من الأحاديث الشريفة نعرف أن النبي (صلعم) قد اهتمَّ بهذا العلم ، ويؤيد قولنا هذا ما جاء في خطبة البيان ، لعلي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه . وسواء أكانت هذه الرواية صحيحة أم غير صحيحة ، فهي

تثبتُ للملأ أن المسلمين قد اهتموا بعلم الكيمياء في أول نشأتهم ، لا سيا بعد رسوخ قدمهم في مصر ، إذ أخذ علماء الاسلام في ذلك الحين يطّلعون على أخبار اليونان ، وساعدهم على ذلك مدرسة الاسكندرية والمترجمون السوريون الذين نقلوا الكثير من اللغة اليونانية الى اللغة العربية ، وكذلك حرّان في العراق فقد أصبحت مركزَ العلوم منذ أيام الاسكندر الكبير ، ومهبط العلماء ، ومهوى أفئدة الحكماء .

درس المسلمون علوم قدماء المصريين في الكيمياء العملية ، وساعدهم ذلك الدرسُ على معرفة تحويل المعادن ، وصنع الزجاج ، وعمل الدّباغ ، وتركيب السموم والعقاقير : بيد أن ما قدروا أن يصلوا اليه من التقدم لم يك كافياً لجعل علم الكيمياء علماً طبيعيّاً ، إذ أنه في العلم الطبيعي تجب معرفة الآراء ودرس الطرق ومعرفة القوى العقلية فضلاً عن الحقائق التي لا مندوحة عنها : وغاية العلم الطبيعي أن نقف على عجائب العالم مما لا يتأتى إلاّ بالعلوم العملية .

أراد اليونان أن يحلوا هذا اللغز عن طريق آخر ، إذ أن التجارُب كانت مجهولة لدى علمائهم ، مثل أفلاطون ، وسقراط ، وارسطوطاليس ، فهؤلاء لم يقم أحد منهم بعمل تجربة بسيطة واحدة . وقد حاول البعض منهم أن يشرح شيئاً عن العالم بواسطة العقل فقط ، من غير تحقيق عملي ، ولا أصول عامة يستند عليها . وقد كان حظ هذه الطريقة كحظ أختها المصْرية ، فلم تصادف نجاحاً لأن العلم الطبيعي لا يتولد إلاّ باتحاد الآراء العلمية مع المشاهدات العملية والتجارب في المختبر .

كان انتصار المسلمين كبيراً عند ما اكتشفوا هذا الاتحاد وأوجدوا علم الكيمياء على أساسه المتين الذي فتح الطريق للتقدم وأوجد العمل في هذا العلم . ولقد وجد المسلمون هذا النحو صعباً لأن علم الكيمياء في الاسكندرية كان مختصّاً بالسحر والالغاز والحيل . ولما كان للمسلمين ميزة لا تقدر قيمتها وهي دينهم الحنيف ، انقشعت أمامهم غيوم هذه الألغاز التي كانت قد استولت على عقول علماء المصريين والفرس والبوزنطيين وأصبحوا يرون العالم بوضوح وجلاء لا من وراء الغمام والضّباب اللذين كانا قد حجبا تصورات غيرهم من الأقوام قبلهم فحبطت أعمالهم وكانوا من الخاسرين .

إذا كانت الروايات الاسلامية في علم الكيمياء حقيقية ، فقد يرجع الفضل فيها لأمير

الامويين خالد بن يزيد بن معاوية الذي أدخل هذا العلمَ في الاسلام . ولقد جاء في كتاب الفهرست لابن النديم أن خالداً بعد أن قطع الامل من التبوء على عرش الخلافة انكبَّ على درس العلوم الطبيعية كل الانكباب . وكانت عنده كتبُ يونانيةُ لا تُعدُّ ولا تحصى كلُّها تبحث عن علم الكيمياء والطّب ، وقد ترجمها الى العربية . فضلاً عن أن خالداً نفسه أخذ يصنف الكتب الكثيرة في علم الكيمياء التي كان أعظمُها شعراً . وإن هذا لعملٌ مجيدٌ خالدٌ من أعمال العرب . وقد ينسب الى خالدٍ كثير من الاشعار المحفوظة الآن في أكبر مكاتب أوروبا ومِصْرَ والعراق ، إلاَّ أنه من الصعب البتّ فيما إذا كان قد كتبها هو بنفسه أو كان قد كتبها غيره ونسبت إليه . وهي لا تفوق غيرها من الكتب إلاَّ أنها قد بسطت علم الكيمياء بسطاً وافياً ، هذا وقد تجلى فيها من الحماس ما جعل كلَّ من قرأها يميل الى درس علم الكيمياء والولوع به ، الأمرُ الذي يجعلنا نحترم الأمير خالداً ونجلُّه ، لأن غيرتَه على تتبع العلوم الطبيعية قد حملت الكثيرين من الناس على الاقتداء به ، وقد قيل إن الامامَ جعفر الصادق كان أحد الذين شُغفوا بهذا العلم مع أنه كان رجلاً منصرفاً الى أمور أخرى ، غيرَ أن ذلك لم يمنعه من أن يدرس علم الكيمياء . ومن المتفق عليه أنه هو الذي أرشد جابر بن حيان إلى طرق العلوم الطبيعية ، ولذلك أجَلَّ علماء الكيمياء المتأخرون جعفراً كلَّ الاجلال .

كان أبو موسى جابرُ بنُ حيان الكوفيُّ أكبرَ علماء الكيمياء في الاسلام ، وإنه ليُعد من كبار علماء الكيمياء في العالم ، ولا نعرف شيئاً عن مولده ولا عن نشأته وأول حياته ، إلاَّ أن بعض المحققين يجعلونه صابئيًّا من حرَّان ، وقد أسلم ، وكان له مختبر في الكوفة كما جاء في كتاب الفهرست . ونعرف من بعض كتبه أنه قضى شطراً كبيراً من عمره في بلاط هارون الرشيد في بغداد . واليك ما جاء في كتاب البرهان في أسرار علم الميزان : « الأستاذ الكبير جابر بن حيان بن عبد الله الكوفيُّ مولداً السَّديُّ قبيلة ، الطوسيُّ منشأً ، الصوفيُّ مذهباً ، أخذ عن جرمي الحِمْيَريّ اليمني الذي كان من المعمرين . وترجمه جابرُ بأنه بلغ من العمر أربعماية عام ، وكان مولدُه قبل الهجرة بأكثر من مائتي سنة حتى بلغ الى أيام هارون الرشيد ، بعد ماية وسبعين سنة من الهجرة ، رحمة الله عليه . ولما مهر جابر على جرمي من

صغره ، وبلغ في العلوم الى مقام كبير ، هاجر الى الامام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن الحسين عليهم السلام فصار بن جابر إماماً واتصل بالبرامكة ، وجرَّب لديهم كثيراً واتصلوا به الى ما بلغوا اليه من نتائج الحكمة ، وعلوّ الشأن ، والتمكين في الدولة ، والاعطاء الكثير الخارج عن الحد ، حتى ضربت باسم جعفر الدنانير برسم الصَّدَقات ، زنة كل دينار منها مئة مثقال واتصل الأستاذ جابر بواسطة جعفر الوزير بالخليفة الرشيد وصنف له كتاباً في الصناعة الشريفة ، وسماه «كتاب الزهرة» وضمنه الطرقَ القريبة فيما بين البراني والجواني بأسلوب ظريف ، وأعمال بديعة . وبسبب جابر جلبت كتب اليونان من الروم الجلبة الثانية ، وتمكن في علوم الفلسفة حتى بلغت مصنفاته ما يزيد على ثلاثة آلاف كتاب ، وتوفي وله من العمر نيف وتسعون سنة ، وكان من أمره ما كان ، ورحمة الله عليه .

وفي مكان آخر يقول الجلدكي أن جابر بن حيان كان على اتصال تام مع البرامكة . ويذكر في كتابه الخواص أن جابراً شفى بنتاً أميرة تخص يحيي بن برمك . ومن أعماله التي وصلت الينا يظهر أنه كان رجلاً كثير الاطلاع ، ولم يك كيماويّاً فقط ، بل كان طبيباً وفيلسوفاً ، ورياضيّاً وطبيعيّاً ، وقد ألف كتباً جمة في مواضيع شتى . ويظهر أنه كان يعرف اليونانية وهذا من الممكن ، لأنه جاء من حران . وعلى كل حال ، فان من يقرأ كتب جابر يعجب من ذكائه ، وجلاء معانيه ، ولا يأمل القارىء أن يجد فيها ما هي عليه من المكانة العقلية عند علماء اليوم : فان ذلك وراثة أجيال طويلة ، وناتج عن صبر وجلد ، وتفكير وعمل ، إلاّ أن المقابلة بين ذكاء جابر ومن أتى بعده واضحة بينة .

يتبعُ جابرٌ في فلسفته العامة خطوات الفيلسوف الكبير ارسوطاليس إلاّ أنه تقدم عليه وبزه في علم الكيمياء ، وكان أول من بشر بعدم الاستغناء عن التجارب في العلوم الطبيعية . وفي كتابه الخواص الكبير نجد مئات من التجارب التي أجراها بنفسه . وكثير من هذه التجارب موضح كل الوضوح حتى انه يمكن اجراؤها اليوم من اتباع تعليماته فقط . ويعود الفضل لجابر في اكتشاف المواد الكيمياوية الضرورية مثل ماء الحلال وروح الكبريت. ولقد تنبه أيضاً الى صعوبات الكيمياء في أعمال الحياة اليومية ، وفطن الى امكان ازالة اللون الأخضر من الزجاج بواسطة تذويبه مع المغنيسيا . وأكبر ما أكسب جابراً الشرف الجمع بين التجارب العملية والتصورات النظرية الكيمياوية على طريقة لم يسبقه اليها أحد

من قبل، وهو موجد النظرية بأن المعادن تتألف من الزئبق والكبريت ، وهذه نظرية بعيدة جداً ، ولقد فتحت الطريق بعد سنين عديدة أمام تقدم نظرية فلوكيستون في الحريق التي أوجدها تحّر واشتال . ولقد عرف جابر قليلاً عن نظرية الذرات التي أوجدها لوكاييس وديمقراطس، ويظهر انه فهمها أيضاً . لقد اعتقد جابر مثلما كان يعتقد قدماء علماء الكيمياء بتحويل المعادن ، وظن انه اتمّ هذا العمل بنفسه ، إلاّ أنه من المهم أن نلاحظ أن جابراً لم يترك لهذه العقيدة المجال لتستولي على عقله فتصبح العثرة الكبيرة في تقدمه ونجاحه ، كما كانت الحالة مع من أتى بعده من الكيماويين .

إن أكثر كتب جابر لم تعرف بعد كل المعرفة أو كما يجب ، فاذا كان العربي يريد أن يخدم أمته ويخدم العلم معاً، فما عليه إلاّ أن يبحث عن كتب جابر ومدوناته في علم الكيمياء وينشر تقريراً وافياً عن أعمال هذا الرجل العظيم ليطلع على ذلك علماء الكيمياء . ومما نعرفه عن جابر هو أنه كان رجلاً عظيماً وعالماً كبيراً . ومن أقواله : — « إن علماء الطبيعة لا يفرحون بغزارة المادة ولكنهم يبتهجون بمهارة طرقهم في التجارب . ومن أقواله أيضاً : أن ليس للنقل والسمع محل في علم الطبيعة ما لم يعضدهما البرهان ، أو بكلام آخر ، إذا حقق القول البرهان فعند ذلك نقول إن النظرية حقة أو صحيحة .

لقد ترجمت أكثر أعمال جابر في القرون المتوسطة الى اللغة اللاتينية ولقد قيل عن بعض أعماله أنها أحسن ما صنعت يد الانسان في الآداب الكيماوية القديمة ، ومن هذه الجامع الأعظم ، وكتاب الاستمام ، وكتاب التنانير ، ولكن ، ويا للأسف لم تكتشف بعد هذه الكتب في اللغة العربيـة ، ولذا نرى بعض علماء الافرنج يشكون بانتسابها لجابر ، إلاّ أن البعض منهم متأكدٌ بأنها من أعمال جابر رغماً عمّا غيّر فيها المترجمون والمؤلفون . ولكي نتحقق من هذا القول يجب علينا أن نبحث بكل جد ونشاط عن هذه الأعمال في اللغة العربية — وإن هذا العمل لمن أكبر الأعمال في تاريخ الكيمياء فيجب علينا نحن العرب أن نَحُلّ هذه المعضلة قبل أبناء الغرب لأن في مكاتبنا الألوف من الكتب المطبوعة والمخطوطة التي لا يَعْرِفُ عندها علماء الغرب شيئاً . فاذا بحثنا البحث الطويل فإننا سنجد اكتشافات هامة ، ولربما عثرنا على كتب جابر التي ذكرتها آنفاً ، وبهذا العمل نقوم بخدمة كبيرة نحو تاريخ علم الكيمياء ، ونُظهرُ للعالم فَضْلَ العرب ، ونساعد على تثبيت الشرف الذي استحقه جابر بن حيان على أعماله الكبيرة الكثيرة .

شريف النشاشيبي

السنة القمرية
وشهورها

من المعلوم أن الأرض تدور حول الشمس وتتم دورتها في ٣٦٥ يوماً وخمس ساعات وسبع وأربعين دقيقة، وان القمر يدور حول الأرض في ٣٥٤ يوماً وثماني ساعات ، فتكون السنة القمرية أقل من السنة الشمسية بعشرة أيام وواحد وعشرين ساعة وسطيًّا .

لقد لاحظ العرب قبل الاسلام وهم يعيشون تحت سماءٍ صافيــة لا تتخللها الغيوم طول السنة إلاّ في أيام الشتاء القليلة طلوع القمر وأفوله ، والتطورات التي تطرأ على شكله وعلى أوقات طلوعه وأفوله ، درسوا ذلك واعتبروه مقياساً للزمن عندهم ، ثم قسموا سنتهم اثنى عشر شهراً قمريًّا دون أن يروا حاجة لدرس أيام الشمس وأسابيعها وشهورها ودون أن يتنبهوا إلى فرق الأحد عشر يوماً من سنتي القمر والشمس . وظلّ هذا الخطأ قائماً على مرّ العصور الى ان انتقل العرب من عالم البداوة الى دنيا الحضارة وأخذوا يزرعون الأرض ويمارسون الأعمال التجارية . فأقاموا الأسواق في أماكن مختلفة لبيع منتوجاتهم وشراء ما يحتاجون من آلات وأدوات وملابس .

وقد نتج عن انصراف القوم الى الأعمال الزراعيــة والتجارية أن راجت عادة تعاطي الأوراق والصكوك التجارية فيما بينهم وتاريخ تلك الأوراق وحينئذٍ انتهوا الى ذلك الفرق بين السنتين الشمسية والقمرية المتقـدم ذكره . وكانت أهم سوق لهم تلك التي يقيمونها في (عكاظ) وهو مكان واقع بين مدينتي نخلة والطائف وموعدها من أول شهر ذي القعدة حتى العشرين منه. ثم تنتقل الحركة التجارية الى سوق (مجنّـه) بمر ظهران حيث تبقى قائمة حتى نهاية ذي القعدة ، وتأتي من بعـدها سوق (مجاز) خلف جبل عرفات حتى اليوم الثامن من ذي الحجة .وفي التاسع منه وهو يوم التروية، يرحل التجار والحجاج الى جبل عرفات ليؤدوا فريضة الحج .

لقد كان العرب في أسواقهم هذه يبيعون ويشترون ، فاذا أقبل المساء ووقفت الحركة التجارية اجتمعوا في النادي العام من تلك السوق ليستمعوا الى القصائد البليغة التي كان يلقيها عليهم شعراء العرب الذين كانوا يفدون من مختلف الأنحاء لينشدوا ما جادت به قرائحهم، وهناك ينال المجلي والمبرز منهم ما يستحقه من تقرير وإعجاب واحترام . ولقد خصوا أبلغ القصائد بالشرف الرفيع فعلقوها على جدران الكعبة بيت آلهتهم المقدس . وهكذا فان العرب وهم أبناء الصحراء موطن الشعور الحي الفياض والخيال الواسع لم ينسوا حتى حين انصرافهم لأعمالهم التجارية إقامة الحفلات الأدبية ليشنفوا آذانهم بسماع القصائد البليغة ويحتفلوا بالمبرزين من فحول شعرائهم ويكرموا الأدب الرفيع بإغداق النعم والجوائز الثمينة على الممتازين من بينهم .

وحينما كانت تلك الأسواق تقام في أوقاتها المعينة من السنة القمرية لاحظ ذوو الحل والعقد من العرب أن حالة الطقس كانت تختلف في مختلف المواسم فتكون تارةً صيفاً وأخرى شتاءً أو ربيعاً أو خريفاً ، ولاحظوا أيضاً أسماء شهور السنة عندهم لا تنطبق دائماً على مسماها. فشهر ربيع مثلاً لم يعد يصادف فصل الربيع. ثم تبين لديهم أن كل ٣٣ سنة قمرية كانت تساوي ٣٢ سنة شمسية . ومنها أنهم توغلوا كثيراً في الشؤون التجارية ، فلقد رأوا من الضروري ملافاة هذا النقص من الزمن . وكان اتصل بينهم أن يهود يثرب وما جاورها — وسنتهم قمرية كما هي عند العرب — يتبعون طريقة خاصة كانوا تعلموها من الكلدانيين وهي إضافة بضعة أيام لكل سنة قمرية ليتمكنوا من ضبط وتحديد أيام الأعياد عندهم. ومنها عيد الفصح الذي يصادف في يوم بدر كامل بعد أن يتساوى الليل والنهار في بدء فصل الربيع. وحين اطلع العرب على تلك الطريقة استحسنوها وأخذوا يمارسونها على أشكال مختلفة ، فتارةً يضيفون شهراً واحداً الى سنتهم القمرية بعد كل ثلاث سنوات ، وأخرى سبعة أشهر لكل ١٩ سنة انقضت أو تسعة أشهر بعد مضي ٢٤ سنة قمرية . وهكذا أمكنهم أن يحولوا دون حلول أشهرهم بشكل تتوالى فيه الاختلافات الموسمية .

* * *

وعبر العرب عن هذه الاضافة بالنسيء أو الكبس كما قال بعض الفلكيين. إلا أن ابن

هشام قال في سيرته حين بحث عن النُسَّاء بأنهم ينسئون الشهور في الجاهلية فيحلون الشهر من الأشهر الحرم ويحرمون آخر بدل شهر من أشهر الحل . وقد نزلت الآية الشريفة في هذا وهي (إنما النسيء زيادةٌ في الكفر يُضلُّ به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرّم الله الآية) . وقد فسر بعضهم هذه الآية فقال :

لقد كانت الأشهر المحرمة معروفة عند العرب فلما دعتهم الحاجة وهي شن الحروب فيما بينهم والقيام بالغارات الى احلال بعضها أرادوا أن يتأوّلوا وان يكتفوا بعدد تلك الأشهر دون التقيد بالأسماء فأحلوا أحد الأشهر تمشياً مع حاجتهم ثم حرموه في عام آخر حينما لم يروا هنالك من حاجة للتحليل.

وقد فسر آخرون النسيء بالكبس وهو بذل عناية خاصّة في اضافة عدد كاف من الأيام في آخر كل سنة قمرية ليكون هنالك ترتيب ثابت لا يتغير يجعل الأشهر القمرية متساوية مع حالة الطقس في الأشهر الشمسية .

***

ولكل شهر من الأشهر العربية اسمان مختلفان الأول منهما وضعه العرب العاربة . والثاني استعمله العرب المستعربة أما أشهر العرب العاربة فهي :

مؤتمر ، ناجر ، حيوانٍ أو بُصان ، رُنَّى ، إيِّده ، الأصم ، عادل ، ناطل ، واغل ، وَرنَه ، بُرَك . واليك الآن أشهر العرب المستعربة :

المحرم ، صفر ، الربيعان ، الجاديان ، رجبٌ ، شعبانٌ ، رمضان ، شوالٌ ، ذي القعدة ، ذي الحجة .

وقد قيل إنما وضع العرب هذه الأسماء لاتفاق حالات كانت وقعت في كل شهر فسمي الشهر بها عند ابتداء الوضع . فسموا المحرّم محرماً لأنهم كانوا أغاروا فيه فلم ينجحوا فحرموا القتال فيه وسمّوه محرّماً ، وسمّوا صفراً ليصفر بيوتهم فيه منهم عند خروجهم الى الغارات . وقيل لأنهم كانوا يغيرون على (الصُفَرية) وهي بلاد في جزيرتهم ، وشهرا ربيع لأنهم كانوا يخصبون فيهما بما أصابوا في صفر . والربيع عندهم هو الخِصْب . والجاديان من

جمد الماء لأن الوقت الذي سُميا فيه بهذه التسمية كان الماء جامداً فيه لبرده . ورجب لتعظيمهم له ، والترجيب هو التعظيم . وقيل لأنه وسط السنة فهو مشتق من الرواجب وهي أنامل الأصبع الوسطى. وقيل أن العود رجب النبات فيه أي أخرجه فسمّي بذلك ، وكذلك تشعب العود في الشهر الذي يليه فسمي شعبان وقيل سمي بذلك لتشعبهم فيه للغارات . وسمي رمضان أي شهر الحر مشتق من الرمضاء ، وشوال من شالت الإبل أذنابها اذا حالت ، أو من شال يشول اذا ارتفع . وذو القعدة لقعودهم فيه عن القتال ، إذ هو من الأشهر الحرم وذو الحجة لأن الحج اتفق فيه فسمي به .

***

واتخذ المسلمون منذ العهد العمري الهجرة النبوية مبدءاً لتاريخهم وقد ذكر الطبري في الجزء الثاني من تاريخه كيفية ذلك فقال : «كان رفع الى عمر صك محلة في شعبان. فقال أي شعبان ؟ هل هو شهر السنة الآتية أو الذي نحن فيه . ثم قال لأصحاب رسول الله : ضعوا للناس شيئاً يعرفونه : فقال بعضهم : اكتبوا على تاريخ الروم فقيل انهم يكتبون من عهد ذي القرنين وهذا يطول . وقال بعضهم : اكتبوا على تاريخ الفرس . فقيل ان الفرس كلما قام ملك طرح بما كان قبله من السنين . فأجمع رأيهم على أن ينظروا كم أقام رسول الله بالمدينة فوجدوه عشر سنين فكتب التاريخ من هجرة رسول الله » .

هذا ما ذكره الطبري عن مبدء التاريخ الهجري . والعرب المسلمون شعروا بحاجة شديدة الى وضع مبدء عام لتاريخ أوقاتهم ومكاتيبهم الرسمية وسجلات وقوعاتهم الحربية حينما انتشروا في بلاد الشرق الأدنى ، وأخذوا يحكمون أمماً لها مدنياتها وتقاليدها وتواريخها . وقبل هذه الفتوحات لم يكونوا يشعرون بتلك الحاجة نظراً لما كان يسود بينهم من البساطة في حياتهم الاجتماعية . ويقول الطبري انهم لم يباشروا بتاريخ وقائعهم وضبط حوادثهم قبل الاسلام الا لمدة لا تتجاوز الجيل الواحد . ولما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن المسلمون قد بلغوا من التوسع الاجتماعي ما يجعلهم يشعرون بقيمة التأريخ الرسمي . وكان نظام الحكم النبوي عندهم بسيطاً ، ولا يحتاج الى اتخاذ الملفات والى حفظ المستندات والى

ترقيم المكاتيب كما هي الحالة في الحكومات التي تكونت فيما بعد. إذ أن وظائف الحكومة النبوية كانت قليلة جداً. والأوامر النبوية كانت تعطى شفويًا فتنفذ حالاً. وقد ظلت أمور الدولة الفتية سائرة على هذا المنوال الى أن انتشر العرب في سوريا ومصر والعراق حيث حلوا محل الأعاجم فشعروا حينئذٍ بضرورة التاريخ حينما باشروا بجمع الضرائب وبتوزيع القوائم وتخصيص الرواتب للمجاهدين. وبما انهم حديثو العهد بتلك الأمور المعقدة التي كانت تحتاج الى خبرة ومران، فانهم رأوا من المناسب أن يستبقوا موظفي تلك البلاد القدماء في مراكزهم ليقوموا بأعمال التسجيل والضبط والتوزيع وقيد وارد الدولة ونفقاتها.

وانصرف أولئك الموظفون الى أداء واجباتهم بالطرق التي كانوا ألفوها فاستمروا على تأريخ أوراقهم وسجلاتهم ومكاتيبهم بتواريخ العهد البائد. واستخدم موظفو العراق التقويم الساساني وموظفو سوريا ومصر التقويم البيزنطي. وهكذا أخذت الأوراق الرسمية ترد الى العاصمة الاسلامية حاملة تواريخ مختلفة لا تتلاءم مع تقاليد العرب وعاداتهم. وهذا ما حمل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب على اتخاذ مبدء للتاريخ يتناسب مع تقاليد العرب المسلمين ويدفع حاجتهم ويطمئن ميولهم القومية والدينية.

***

لقد كان من المعقول حين فكر عمر باتخاذ مبدء للتاريخ أن يقترح عليه اعتبار اليوم الذي ولد فيه سيد الأنبياء أو اليوم الذي بعث فيه لهداية الناس الى ديانة الحق والعدل نظراً لما لهذين اليومين من المكانة الممتازة في حياة بعض الناشئة المسلمة. إلاّ أن القوم اختاروا يوم الهجرة مبدأ لتقويمهم الجديد بدلاً من يومي المولد أو البعثة ويظهر أن هذا الاختيار والترجيح كان بناءً على اختلاف المسلمين حينئذٍ في تعيين التواريخ الصحيحة لهذين اليومين العظيمين.

فلقد اختلف المؤرخون في العام الذي ولد فيه النبي فأكثرهم على انه في عام الفيل (٥٧٠ م). ويقول ابن عباس: إنه وُلد يوم الفيل. ويقول آخرون إنه ولد قبل الفيل

بخمس عشرة سنة . ويذهب غير هؤلاء إلى أنه ولد بعد الفيل بأيام وبأشهر وبسنين يقدّرها قوم ثلاثين سنة ويقدرها قوم تسعين .

واختلف المؤرخون كذلك في الشهر الذي ولد فيه وإن كانت كثرتهم على أنه ولد في شهر ربيع الأول، وقيل ولد في المحرم ، وقيل ولد في صفر، والبعض يرجح رجباً على حين يرجح آخرون شهر رمضان

كذلك اختلفوا في اليوم من الشهر الذي ولد فيه فقيل ولد لليلتين خلتا من ربيع الأول وقيل لثمان ليال ، وقيل لتسع . والجمهور على أنه ولد في ثاني عشر ربيع الأول . وهو قول ابن اسحاق وغيره وكذلك اختلف في الوقت الذي ولد فيه أكان نهاراً أم ليلاً . كما اختلف في مكان ولادته بمكة .

والمرجح أن الولادة كانت في ٢٠ أغسطوس سنة ٥٧٠ أي عام الفيل وكانت الولادة في دار جده عبد المطلب بمكة .

***

فما تقدم يفهم أنه كان يتعذر على عمر وأصحابه الاتفاق على يوم الولادة ، كما أنه تعذرت أيضاً على ما يظهر معرفة اليوم الذي بُعث فيه النبي صلى الله عليه وسلم . سنة ٢٢ لقد جاء في الجزء الثاني صفحة ٢٥١ من تاريخ الطبراني ما يأتي :

أنزلت عليه النبوّة وهو ابن اربعين سنة، فقُرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين كان يعلمه الكلمة والشيء ولم ينزل القرآن على لسانه. فلما مضت ثلاث سنين قُرن بنبوته جبريل عليه السلام فنزل القرآن على لسانه عشر سنين بمكة ، وعشر سنين بالمدينة ، فلعل الذين قالوا : كان مقامه بمكة بعد الوحي عشراً عدّوا مقامه بها من حين أتاه جبريل بالوحي . وعدّ الذين قالوا : كان مقامه ثلاث عشرة سنة من أول الوقت الذي استنبىء فيه . وكان اسرافيل المقرون به وهي السنون الثلاث التي لم يكن أُمِرَ فيها بإظهار الدعوة .

وأجمع المسلمون وعلى رأسهم الخليفة الثاني عمر على اعتبار الهجرة النبوية مبدأً للتقويم الاسلامي الجديد . كيف لا ، والهجرة قصة من أروع ما عرف تاريخ المغامرة في سبيل الحق والعقيدة والايمان . لقد كان النبي هاجر الى يثرب حتى يتمكن من تبليغ رسالة التوحيد

والهداية ، تلك الرسالة التي حاربها أهل مكة من يوم بعثته الى يوم هجرته أهول حرب فهو لم يفكر حين هاجر في مال أو جاه أورتبة أوتجارة إنما كان همه نشر رسالته وتوفير الطمأنينة لمن يتبعون تلك الرسالة ، وكفالة الحرية لهم في عقيدتهم وصلاتهم . لقد كانت مكة ضيقة جدًّا بالنسبة لعظمة الرسالة . وكان القرشيون حجر عثرة في سبيل انتشارها واقتطاف ثمارها اليانعة لخير الانسانية وسلامة البشرية من ضلال الوثنية وفوضى البداوة الجاهلة . فلما وقعت الهجرة اتسع أمام صاحب الرسالة مجال العمل فتضاعفت الجهود وتضافر الاخوة في سبيل الله وفي سبيل العقيدة والايمان فلم يمض على ذلك اليوم — يوم الهجرة المبارك — ثماني سنوات الا وكان جيش التوحيد يتوج جهود نبيه ، ويحتل عاصمة قريش ويقيم فيهـا عرشاً شعاره الايمان والجهاد في سبيل الحق والعمل الصالح في انقاذ المظلوم من الظالم .

هذا هو يوم الهجرة الذي اتخذه عمر بن الخطاب وعصبته المجاهدة المؤمنة مبدأً للتقويم الاسلامي . وهو يوم معروف التاريخ لم يشك فيه أحد . ولقد قال الطبري في تاريخه عن تقرير هذا المبدء ما يلي :

(قدم النبي (ص) يوم الاثنين لاثني عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، فاذا كان الأمر في تأريخ المسلمين كالذى وضعت ، فانه وإن كان من الهجرة ، فان ابتداءهم إياه قبل مقدم النبي المدينة بشهرين وإذا هي اثني عشرة وذلك أن أول السنة محرم . وكان قدوم النبي المدينة بعد مضي ما ذكرت من السـنة ولم يؤرخ التاريخ من يوم قدومه ، بل من أول تلك السنة) .

ولقـد رأى أحدهم أن يحقق اليوم الذي هاجر فيه النبي بحسب التقويم الشمسي فقام بعملية حسابية طويلة لا محل لذكرها . ثم وجد أن قدوم النبي (ص) هاجر الى المدينة كان يوم الاثنين الواقع في ١٦ تموز سنة ٦٢٢ الميلادية .

رفيق التميمي

يافا — فلسطين

خريج السربون — وجامعة استانبول

عيد الميلاد

تأليف : أنتوني تشيكوف

ترجمة : سليم الأسيوطي

انتوني تشيكوف قصاص روسي من الطراز الاول ، أبدع في تصوير شخوصه والحياة الانسانية تصويراً بلغ حد الكمال ، فهو يبعث فيهم وفيها الحياة ناضرة نابضة فنراهم يتحركون . والنشاط والحياة تملؤهم . وفي هذه القصة القصيرة يرسم لنا الكاتب العظيم صورة لكهل وزوجه العجوز يذهبان الى جندي متقاعد احترف تسطير الرسائل يستكتبانه رسالة الى صهرهما في بطرسبرج . وفي الحديث الذي يدور بينهما وبينه تبدو عقلية هذا الصنف من الناس وغيرهم ممن عاشوا في هذه القصة القصيرة — المترجم .

ماذا أكتب ؟ هكذا تساءل يوجر وغمس في المحبرة قلمه . منذ أربعة أعوام لم تر فاسيليزيا يفيما ابنتها التي ذهبت الى بطرسبرج عقب زفافها ، ثم أرسلت الى أمها خطابين ومنذ ذلك الحين ، انقطعت أخبارها ، كمن فارق الدنيا ، فلم يعد يسمع لها صوت ، ولا يلوح لها خيال . وكانت المرأة العجوز دائمة التفكير في شيء واحد ، سواء أكانت تحلب البقرة في فجر الصباح أم توقد النار في المساء أم تغفو في الليل — ماذا حدث ليفيما ؟ أهي حية ترزق وقد أضحى التنائي من التداني بديلاً . وكان فرضاً عليها أن ترسل خطاباً ، فالوالد مسن ، وهن عظمه واشتعل منه الرأس شيباً ، لا يستطيع الكتابة ، وليس في الكورة من يكتب ، وقد أقبل عيد الميلاد ، وفاسيليزيا لا تطيق صبراً أكثر مما احتملت ، فذهبت الى الحان حيث يجلس يوجر أخو زوج صاحبه ، وهو متعطل منذ عودته من الجندية ويزعم الناس انه ذو مقدرة فائقة على تحرير الكتب إذا أجزل له العطاء ، ففاتحت فاسيليزيا طاهي الحانة ثم ربة الدار ، ثم يوجر ، وتم الاتفاق على خمسة عشر (كوبك) . وكان ذلك في اليوم الثاني من عطلة العيد . وفي مطبخ الحان حيث جلس يوجر الى المنضدة ممسكاً بقلمه في يده ، ووقفت فاسيليزيا أمامه وقد ارتسمت على وجهها دلائل القلق ، وبدت على أساريرها علامات الألم ، وكان يرافقها

زوجها بوتر، وهو شيخ نحيل توسطت رأسه بقعة صلع غبراء، سار مرسلاً نظراته في شعاع مستقيم كأعمى، وكانت شريحة من لحم الخنزير تقلى على الموقد في طاجن مع قليل من عصير الطماطم، تئز بأصوات وقعها في الأذن مثل كلمات فلو فلو فلو ترسلها وهي تقرب من النضج.

***

عاد بوجر يكرر سؤاله: ماذا أكتب؟ ماذا تساءلت فاسيليزيا ناظرة اليه في غضب وشك. لا تتثقل عليَّ فإنك لن تكتب لي بدون أجر. لا تخش شيئاً فاني سأنقدك أجراً عن عملك هيا اكتب: الى صهرنا العزيز أندري هريسانفتش، وابنتنا العزيزة الوحيدة يفيما بتروفانا في شوق لاعج نبعث بتحياتنا في حب واعزاز، داعين لكما بالبركات تغمركما أبد الحياة. نتمنى لكما عيداً سعيداً نحن ننعم بعيش خافض وحياة رغدة نرجو لكما أطيب منها،.... استجب يا الهي دعواتنا.... يا سيد السموات والأرض»

غرقت فاسيليزيا في تأمل عميق، ثمَّ أفاقت وتبادلت النظرات مع رجلها المسن.

«..... ونرجو لكما أطيب منها، تقبل دعائي يا خالق السموات والأرض». رددت فاسيليزيا الدعاء وبدأت تنتحب حتى عجزت عن أن تفوه بأكثر مما قالت، وكانت تخال في ليلتها الماضية وهي مستلقية على فراشها، مستغرقة في هواجسها وأحلامها إنها لن تكفيها عشر صفحات لتودعها ما في رأسها من أفكار. إذ منذ رحلت الابنة صحبة زوجها فاض ماء البحر غزيراً جارفاً، وحرم مسنو الأسرة الخير والنماء وعاشوا في حاجة وعوز، ضائقة صدورهم بالتنهدات والأنين ليلاً، والشكوى يرددونها نهاراً، وغدوا كمن واروا ابنتهم الثرى وفقدوها الى الأبد. لقد وقعت أحداث كثيرة في القرية منذ غادرتها يفيما فكم من زفاف وكم من وفاة، ما أطول فصول الشتاء وما أمر لياليه.

«الجو حار» قال بوجر وهو يفك أزرار سترته، وأردف لا بدَّ ان درجة الحرارة قد بلغت السبعين، ثمَّ سأل هل من مزيد؟

صمت الرجل المسن، وسكتت زوجه العجوز... ثم أردف لقد كان جندياً، يا صديقي الطيب، فاه الرجل في صوت خفيض، وترك الجندية في الوقت الذي عدت فيه. كان جندياً

وثق مما أقول ، ولكنه يقيم الآن في بطرسبرج بواباً لمؤسسة العلاج المائي حيث يعالج الطبيب مرضاه بالماء دون غيره من العقاقير أو الأسلحة .

ثم قالت المرأة العجوز وهي تخرج خطاباً من جيبها نعم ان ما سمعت ولوحت بالخطاب في يدها ، مكتوب هنا ، ولقد جاء من يفيما ولكن متى كان ذلك فعلمه عند ربي . أليس من المحتمل أنهما صارا في عداد الأموات . فكر يوجر قليلاً ، ثم عاود الكتابة على عجل من املاء العجوز .

ثم استأنف الرجل العجوز إملاءه من جديد يقول « وفي الوقت الحاضر » اكتب يا يوجر ... « ومن يوم كتب عليك الانخراط في سلك الجندية ونحن ننصح لك أن تقرأ مجموعة الجنح التأديبية والقوانين الأساسية للادارة الحربية ، وسيبين لك من قراءتها ما يضطلع به رجال الحرب » .

سطر يوجر ما سمعه ، ثم قرأ عليهما ما سطر في صوت مرتفع بينما كانت فاسيليزيا تتدبر ما يجب اضافته الى خطابها ... كيف كانت حالهم في العام المدبر ، ولم تكف الحنطة حاجتهم حتى عيد الميلاد فاضطروا الى بيع البقرة فيجب والحال هذه طلب نقود وتصوير ما غدا فيه الرجل الشيخ من شكايات متواصلة دائبة وربما فارق الحياة وشيكاً .... ولكن أنى للمرأة العجوز الافصاح عن دخيلة نفسها ومكنون قلبها والألفاظ لا تطاوعها ؟ ولا تعرف كيف تبدأ ولا متى تنتهي . فصمتت وعاود زوجها الاملاء قائلاً « أكتب ملحوظة » ، فاستأنف يوجر الكتابة « في المجلد الخامس من أنظمة الجيش كلمة جندي اسم يكون تارة عاماً وأخرى علماً ، والجندي في المرتبة الأولى هو القائد ، وفي المرتبة الدنيا ... ثم قطع الحديث وحرك الرجل الهرم شفتيه بعد برهة ، وقال في رقة وهدوء » انه لمن الواجب ومن الصواب أن يعني الأبناء بالأحفاد فسألت المرأة ، وقد استشاطت غضباً : أي أحفاد تعني ؟ فأجاب الشيخ ، أليس من الجائز أن يكون هناك أحفاد ؟ ربما كان هناك بعض الحفدة فمن يدري ؟ فقاطعته قائلة :

أهكذا يكون تصورك للأشياء ؟ وأسرع يوجر في عمله ، وأسرع الشيخ في الاملاء .. ان ألد أعدائنا في الداخل وفي الخارج هو باخوس اله الخمر .

مرَّ القلم بين أصابع يوجر ولمع كشص صياد عند ما أجراه على القرطاس ، وأسرع فتلا كل ما سطر .

وكان يوجر يجلس على مقعد يحرك قدميه العريضتين تحت نضد أمامه ، تنطق طلعته بالفتوَّة والشباب ، ويترقرق ماء العافية في وجنتيه ، ووجهه كالح كوجه حيوان كاسر ، ورقبته كرقبة ثور ، فهو الفظاظة تجسمت . فخورٌ بطفولته وصبوته التي أظلتها سماء الخان حيث درج منذ الصغر .

وكانت فاسيليزيا تعي صفات يوجر ، ولكن تنقصها قوة التعبير ، فنظرت اليه وهي تتميز من الغيظ ، وانتابها الدوار واستعصى عليها التعبير ، وسبب لها صوته الأجش وهمهمته الخشنة الصداع ، ومنعا عليها القول ، وزاد الحال سوء حرارة المكان ، وهواؤه الفاسد ، فأمسكت عن التفكير وتمهلت ريثما يفرغ يوجر من كتابته ، بينما نظر الرجل الكهل في ثقة واطمئنان ، ثقة بزوجه ، واطمئنان اليها ، وقد جاءت به الى ذلك المكان كما كان يرتاح الى يوجر فلما ذكرت كلمة دار العلاج المائي نطقت أسارير وجهه بإيمانه بها ، وقوة عقيدته في الماء على الشفاء .

* * *

وحين فرغ يوجر من تسطير الكتاب وقف يعيد تلاوته ، والشيخ يهزّ رأسه مظهراً راحته الى ما يسمع دون أن يفهم له معنى .

قال الشيخ : « تجري الأمور طوع ما نبغي ، فالخطاب رقيق حافل جزاك الله طيب الصحة يا بنيَّ . . . . الحال مرضية راضية .

ألقت المرأة والشيخ بقطعة نقود من ذات الخمسة (كوبك) على النضد ، وغادرا الخان والرجل ثابت البصر ، لا يطرف كأنه أعمى ارتسمت دلائل المعرفة والحكمة كاملتين على وجهه ، أما فاسيليزيا فما وضعت قدمها خارج عتبة المنزل حتى لوَّحت بيديها حانقة مغيظة وهي تقول « فليأخذك الوباء » .

قضت المرأة العجوز الليل بطوله ساهرة مسهدة ، ما اكتحلت عينها بنوم ، ولا أخذتها

سنة ، تقض البلابل والهموم مضجعها ، فما لاح الفجر حتى هبت من رقادها تردد صلواتها ، ثم خرجت تقصد مكتب البريد سعياً على الأقدام لتلتي بالخطاب ، وهو يبعد مسافة تسعة أميال

***

— ٢ —

بدأت عيادة الطبيب ب . و . فوريلوز في صبيحة العام الجديد تستعيد نشاطها ، وتستكمل جميع مظاهرها السالفة إلاَّ شيئاً واحداً فان الحاجب اندري هارنفنش ارتدى حلة رسمية ذات جدائل وأولى حذاءه نظافة فائقة ، ويحيي الزائرين قائلاً : عام سعيد .

وقف بالباب يقرأ صحيفة بيده ، وفي الساعة العاشرة وفد الى الدار ضابط عظيم ، تعوَّد الاختلاف اليها ، وقدم في أثره ساعي البريد فتلقف أندري معطف الزائر وهنأه بالعيد قائلاً : عام سعيد يا سيدي » فأجاب الضابط : أشكر لك تمنياتك أيها الفتى الطيب ، ولك مثل ما نرجو ، ولما بلغ أعلا درجات السلم أومأ برأسه تجاه الباب وألقى سؤالاً اعتاد أن يلقيه كل يوم وينسى الاجابة عليه : ما الذي بهذه الحجرة ؟ انها غرفة التدليك ياسيدي .

هدأت خطوات الضابط وخفت وقعها ونظر اندري الى الرسائل التي وصلت فوجد بينها رسالة باسمه ، ففضَّ غلافها وقرأ بضعة سطور منها ، ثم مضى وئيد الخطى ، وهو ينظر في الصحيفة ، نحو حجرة في الطابق السفلي في الجهة المقابلة للبهو .

كانت يفيا زوج أندري في فراشها ترضع طفلها وبجوارها رقد أكبر الأطفال سناً ، واستلقى الثالث مسنداً رأسه بشعرها المتموّج على فخذ أمه .

دفع اندري الخطاب الى زوجه وهو يطأ أرض الحجرة وقال . خطاب أظنه من القرية .

وغادر الحجرة ولا زال بصره عالقاً بالصحيفة ، واستطاع أن يسمع يفيا وهي تتلو السطور الأولى من الخطاب في صوت متهدج باكٍ ، قرأت السطور الأولى ولم تستطع الاستمرار ، ففي ما قرأت الكفاية ، ثم استخرطت في البكاء واحتضنت طفلها الأكبر ، وطبعت على وجهه قبلاتها ، وفي صوتها حشرجة ليست بنشيج البكاء ولا بقرقعة الضحك وقالت بلسان حال رضيعها :

خطاب من جدتي، نعم خطاب من جدتي، من القرية يا للسماوات، ويا للقديسين والشهداء، ان الجليد الآن يتراكم أكواماً تحت سقوف المنازل ... والأشجار تكسو رؤوسها تيجان ناصعة البياض من الثلج، والصبية تنزلق في مركباتها الصغيرة، وجدي العزيز الأصلع يجلس بجوار المدفأة. وكذا كلبنا الصغير ... اني أعرف أحبائي. » طرقت تلك الكلمات سمع اندري فذكر خطابات زوجه التي أعطتها له رجاء أن يبعث بها الى القرية ولكن في كل مرة كان يحول دون ذلك عارض يمنعه، ففقدت جميعها للأبد.

« الارانب البرية تسرح حوالي الحقل » غنت يفيما وغمرت طفلها بالقبلات وفاضت عيناها بدمع هتون وأردفت « ان جدي عطوف رقيق .... وجدتي رحيمة حسنة الطوية وأهل الريف ذوو شعور قوي دافق، وعاطفة مشبوبة جياشة، يخشون الله، ويعيشون في مخافته، والقرويون يرتلون الترانيم في الكنيسة الصغيرة. ابتعدي بنا عن هذا المكان البغيض أيتها السماء، أيتها الأم المباركة المقدسة »

***

عاد اندري الى الغرفة ليدخن لفافة تبغ في انتظار دقات طارق جديد فأمسكت يفيما عن الكلام واعتصمت بالصبر، وجففت الدموع في مآقيها وما زالت شفتاها ترتعشان، فقد كانت ترهب زوجها وتخشى بطشه وسطوته.

ارتعدت فرائصها، وملأها الذعر عند سماعها وقع أقدامه، وتبينت في عينيه ما أخرسها عن التفوه بكلمة في محضره.

لم يكد أندري يشعل لفافته حتى دق الجرس فأطفأها، واصطنع الرزانة وأوسع الخطى نحو الباب الأمامي. كان الضابط يهبط الدرج منتعشاً متورد الوجنات بعد حمامه.

سأل، كما سأل من قبل مرات، وسبابته تشير الى الباب: « وماذا عساه يكون في تلك الحجرة؟ »

وضع اندري يديه في سرعة وخفة بجانبه كعادة الجند وأجاب في صوت مرتفع، مثمن الماء الساخن يا سيدي.

تمت



مكتبة المقتطف

مقدمة في الاجتماع

كتاب للاستاذ عبد الفتاح ابراهيم — بغداد

حيّا الله العراق وأهل العراق ، فإنهم قد أعطوا الدنيا كلها الدليل الواضح على عراقتهم في المجد ، وقدم عهدهم بالمعرفة ، وطول ممارستهم لشؤون الفكر والبحث ، على الرغم من أحداث الليالي : فلقد كان لبغداد في العصور الخوالي شأن وأي شأن في العلوم والآداب والفنون ، إذ كانت كعبة كل أديب ، ومطمح نظر كل مفكر ، عنها تصدر الروائع ، وفيها تظهر الطرف ، وفي قصورها ونواديها ومجتمعاتها تشهد أرقى صورة لنهضة الذهن ويقظة الروح ، ثم شاء ربك لحكمةٍ يعلمها أن تصيب العراق نوازل الدهر وكوارث الحدثان ، فاغتصبها الدخيل . وعدا عليها المستعمر ، وقضى على نواحي العظمة ومظاهر المجد فيها قوم بغوا في الأرض بغير الحق ، ومضى على ذلك دهر طويل ، وشاء ربك أن يعود السيف إلى قرابه ، وأن يرجع الحق الى أهله ، وأن ينال القوس باريها ، فتنفست العراق الصعداء منذ سنوات معدودات ، وما كان أشد دهشة الناس حينما رأوا العراق اليوم في مجده ونهضته وعظمته ، هو عراق القرون الماضية ، حيث كان مجلى النباهة ، ومستراد الوثبات والطفرات ، فكأن دهر الاحتلال والاستعمار لم يكن إلاّ سِنة من النوم استجم بها العراق قوته ، وجمع فيها شمله ، وجدّد نشاطه ، ثم هبّ من نومه مذعوراً وقد رأى الأمم تقدمته بخطوات ، فهرول في سيره ليدركها ، وطار في مشيته ليسبقها ، وأبى أن يستكين أو يصبح في الطليعة ! …

أجرى على قلمي هذه العبارة الصادقة ما رأيته من مظاهر النهضة والتقدم في العراق

الشقيق الحبيب ، وعلى الأخص تلك النهضة الأدبية التي أنتظر أن تؤتي أطيب الثمار في الغد القريب ، فلقد غمرتنا العراق بمجلاّتها الناشئة والناهضة ، وكتبها العلمية والأدبية القيمة ، التي إن دلت على شيء فلا تدل إلاّ على أن العربية بمصر والعراق وسوريا وبقية بلاد العرب حية لا تموت بإذن الله تعالى !

هذا كتاب جديد قيم ، في موضوع لم يصدر عنه بالعربية إلاّ كتاب أو كتابان ، فهو جديد على أذهاننا ، طريف في بلادنا ولغتنا ، فهو بلا شك صعب التناول شديد المراس علينا ، فاذا ما رأينا أديباً نابهاً منا تناول القول عنه فوفق في أكثر مراحله ، وأجاد في أغلب مواضعه ، كان واجباً علينا أن نقدّره حق قدره ، وأن نرفع من شأنه بين النابهين من الأدباء !! . .

اسم الكتاب « مقدمة في الاجتماع » ومبحثه كما هو ظاهر « علم الاجتماع » ومؤلفه الأديب الكبير الأستاذ عبد الفتاح ابراهيم ، من خيرة المثقفين المفكرين في العراق ، والذي درس حيناً من الزمن في أمريكا ، بعد أن رغب التخصص في التاريخ والاجتماع ، وقد سمعت أنه أصيب أثناء دراسته بأمريكا بمرض أجبره على الانقطاع عن الدراسة ، قبل حصوله على اجازة « الدكتوراه » بعام واحد ، فاضطرّ الى العودة إلى بلده العراق ، ولم يهيء الله له أن يعود مرة أخرى ، فاشتغل بالبحث في شؤون التاريخ والاجتماع ، حتى صار في ذلك أقدر من حملة الإجازات والشهادات العليا . . .

وكتابه هذا يقع في ٢٢٣ صفحة من الحجم المتوسط ، ويشتمل على تسعة فصول ، استعرض فيها النزعتين « الروحية والواقعية » في الحياة ، وأثرهما في الاجتماع ، ثم تناول « السياسة » فحلل معناها ، وبين صلتها بالمجتمع ، وأتى على نبذة في منشأ علم الاجتماع ومذاهب الفلاسفة اليونانيين وغيرهم فيه ، ثم انتقل الى تعريف المجتمع ومنشئه ، وأتبع ذلك بذكر مقوّمات المجتمع وهي : رابطة الجنس ، والبيئة ، والاقتصاد . . . ثم تحدّث عن « المثالية والمادية » حديثاً استغرق ما يقرب من أربعين صفحة ، ولكنه على الرغم من ذلك الطول جاء مبهماً موجزاً ، خصوصاً فيما أورد من أمثلة ، ولا يعني بتفسير « المثالية والمادية » إلاّ كتاب في خمسمائة صفحة كاملة على الأقل ، ثم تحدّث المؤلف عن تطور المجتمع ووجهة

ودلائله ، وذكر بتوضيح مقوّمات هذا التطور من القومية وملاءمة البيئة وتوزيع العمل ...

وأول ما ألاحظه على المؤلف ميله الى طريقة النقل والاستشهاد والتقرير ، لا إلى الانشاء والابداع ، فكثيراً ما تقرأ في تضاعيف الكتاب هذه الجمل : « ذهب فلان الى كذا » و «مذهب فلان كذا » و « في الكتاب الفلاني كذا » ! . . أفما كان يجدر بالمؤلف وقد تخصص في الاجتماع . وطال عهده ببحوثه وفصوله أن يقدم لنا نتيجة بحوثه الفردية وآرائه الشخصية ؟ ... ولكن قد نجد للمؤلف عذراً عن ذلك في تسميته الكتاب « مقدمة » وننتظر منه أن يكتب بعد ذلك في الصميم فينشيء ويبدع ! ...

وفي صفحة ٤٧ يستشهد المؤلف على رجوع الانسان إلى أصل واحد بقدرة أزواجه على التزاوج والتناسل ، بخلاف بقية الحيوانات الأخرى ، فإن جنسين مختلفين منها لا يتناسلان وإن تناسلا فإن ذريتهما تفقد قابلية التناسل حتماً ، كما هو الحال في الخيل والحمير عندما تتناسل فتلد البغال العقم » . والتعليل بهذه العلة غير مقبول ، فقد ولدت إناث البغال في حوادث معدودة ، فيبطل قوله « حتماً » . فان قيل إن ذلك من باب الشذوذ ، والشذوذ غير معتبر ، قلنا : ولا يصح لنا أن نعقد قاعدة علمية تطرد ارتكاناً على مثل هذه الحجة ، فالتناسل من سنة الطبيعة ، والطبيعة لا نستطيع ضبط ناموسها ، فقد تتناسل العقم غداً ، كما قد تعقم المتناسلة ، وذلك من أمور الغيب ، ولعلّ مما يؤيد رأيي هذا عبارة المؤلف نفسه في صفحة ١١١ عن عدم اطراد صحة الاختبارات والمشاهدات ، وهذا نصها : « الاختبارات لا تدل على أكثر من نتائجها ، فانجماد الماء في درجة الصفر في حالات معينة لا يدل على أنه ينجمد دائماً في هذه الدرجة ، فربما تكون درجة الحرارة انخفضت ملايين من المرات فيما مضى فلم ينجمد ، وقد تنخفض في المستقبل فلا تنجمد أيضاً » ! ! . . وقياس التناسل بين نوعي الجنس البشري الإنساني على التناسل بين جنسين مختلفين من الحيوان كالخيل والحمير قياس غير صحيح وغير مستقيم ، ففي الانسان كان النوعان داخلين تحت جنس ، أما في الحيوان فهما جنسان كل منهما مستقل بخصائصه ومميزاته ، وإن جمعتهما رابطة الحيوانية بعد ذلك ! .

وفي صفحة ٤٨ يقول المؤلف : « ... وشفاهاً غليضة » وأظن الصواب « غليظة »

بالظاء لا بالضاد ، فأنا لم أسمع كلمة « غليضة » هذه إلاّ في العامة !.

وفي صفحة ٧٠ يقول المؤلف عن وفرة الحاصلات وعدم احتياجها الى عناء : « فالأرز يكفي أن تبذر بذوره فيجنى محصوله » والواقع يناقض هـذا القول ، فزراعة الأرز تحتاج الى مجهود كبير حتى تنضج ثمرتها وتؤتي أكلها ، والفلاحون في مصر مثلاً — وهي بلد مشهورة بزراعة الأرز ، وفيها النيل المبارك — قاسوا ولا يزالون يقاسون الأمرين في زراعة الأرز !.. وجولة قصيرة في أرجاء الريف أثناء الصيف يعطيك أوضح دليل على ما نقول !.

وفي صفحة ٧٢ يقول المؤلف عن استعباد الملوك للأفراد في العصور القديمة ، فالفراعنة — مثلاً — لم يبالوا بأن يستهلكوا جهود ألفي رجل مدة ثلاث سنوات لنقل كل حجر من أحجار الاهرامات من مخارجها إلى أماكن الانشاء ، بحيث استنزف بناء الهرم الأكبر جهود ثلاثمائة وستين ألف عامل مدة عشرين سنة ، وكذلك لم يعبأوا بإفناء نيف ومائة وعشرين ألف عامل في حفر قناة البحر الأحمر ... » . وهذا القول مبالغ فيه ، ويخطىء من يبالغ في وصف قسوة الفراعين على رعاياهم ، ولا يعقل أن نقل الحجر الواحد في الهرم كان يستنزف جهود ألفي رجل مدة ثلاث سنوات ، مع ان أكبر حجر في الهرم لا يزيد عن بضعة أطنان ، والمسافة بين المحجر وبين محل البناء ليست طويلة طولاً فاحشاً ، وكذلك لم يستخدم في بناء الهرم ٣٦٠,٠٠٠ عامل كما ذكر المؤلف ، بل مائة ألف فقط ، كانوا يشتغلون في العام ثلاثة شهور زمن الفيضان ، ثم يستبدل بهم غيرهم ، وهكذا ... وقناة البحر الأحمر لم يهلك في انشائها ربع هـذا العدد المذكور ، ومن يتصوّر أن قناة متوسطة الطول والعرض يفنى في إنشائها مائة وعشرون الف عامل !. أي يموتون ويهلكون !. رفقاً بعقولنا ، ورفقاً بالتاريخ يا أستاذ عبد الفتاح !

لا تظلموا الموتى ، وإن طال المدى إني أخاف عليكمو أن تلتقوا !

ويتحدّث المؤلف في ص ٧٢ أيضاً عن أهل البلدان الحارة فيقول إنهم « ... يضبطون نسلهم خوف الجوع والعري » . ونحن لم نسمع قبل هذا العصر أن قوماً حاولوا تحديد النسل أو ضبطه ، وإنما قلّ النسل في البلاد الباردة لأسباب طبيعية ، فالجو البارد والغريزة الجنسية الباردة الراكدة بسبب هذه البرودة وقلة القوت الذي يعد عاملاً أساسيًّا في تكون المادة التناسلية

وتوفيرها ، هذا وغيره هو السبب في قلة النسل بتلك البلاد ، على عكس ذلك في البلاد الحارة ! .

وفي ص ١٠١ يقول : « ومسخرة لأجل محافظة مصالح المنتفعين به » والصواب فيما أعلم « حفظ » أو « المحافظة على . . » . وفي نهاية ص ١١٣ وردت كلمة « بيضوي » نسبةً إلى البيضة ، والمشهور « بيضاوي » وإن يكن القياس « بيضي » ! . وفي ص ١٩٣ يقول عن وطن الانسان : « الذي ضمت تربته (رمم) أسلافه » ولو عبر بـ « جثث » أو « رفات » بدل « رمم » هذه التي يشم منها الرائحة الخبيثة لـكان أجمل وأحسن .

وقد أعجبني كل الاعجاب عبارة المؤلف في ص ١٧٨ عن سمو الأديان السماوية ، وسوء فهم الناس لها ، وتحويرهم الخاطىء لمبادئها ، فاستمع اليها تحس بما أحسست به ، قال :

« على أن الانسان لم يوفق الى ما كانت تريده له هذه الأديان العالمية ، فقد عاقه الجهل الشامل وقصر العقل في ذلك الزمان عن إدراك مراميها السامية ، واضطربت مساعيه في هذا السبيل ، بما اضطره الى اتخاذه من وسائل فرضها عليه الواقع ، فلم يمض على ظهور هذه الأديان غير وقت قصير حتى التوت كثير من مبادئها ، لما أساء الناس فهمها ، واستحالت الى أغلال عاقت ارتقاء العقل ، ويسرت لذوي الأطماع أن يجعلوا منها ستاراً لمطامعهم في المال والسلطان ، وهكذا انقلب الجهاد في سبيل الاسلام مثلاً الى نزاع على سلطة الحكم التي تقمصتها الخلافة ، فآل نشر الدين الى بسط السلطان ، ومبدأ الاخاء الانساني الى تسخير الشعوب باثارة العداوة بينها لخدمة مطامع المتنازعين على السلطة ، وقامت الـكنيسة في أوربا ففعلت في المسيحية مثل ما فعل النزاع على الخلافة في الاسلام ، واتخذت من مبادىء الدين المسيحي السامية وسائل لجمع المال ، وخدع الناس بالبهرجة الزائفة ، واشغالهم بالطقوس الجوفاء ، واستهلاك قوى العقل في مسائل لا طائل تحتها ، واستخدام سلطان الدين لتدعيم الاقطاع ! » .

هذا جميل كما ترى ، ولـكن ما بال المؤلف يذهب عقيب ذلك مباشرةً فيناقض نفسه ويدّعي أن الأديان العالمية — يعني السماوية كما يظهر — « وإن سوّت بعض التناقض في كثير من الصلات الاجتماعية . . . ولـكنها قوّت في مؤسساتها متناقضات أخرى بالتفريق بين الناس على أساس الاعتقاد... » الخ .

يا أخانا الأستاذ عبد الفتاح ! . . أما الأديان الوضعية فقد اتفق العقلاء على أنها باطلة . وأما الأديان التي ثبتت سماويتها فكلها من نبع واحد ومصدر واحد ، قال القرآن الكريم : « قولوا آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل الى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » . وقال القرآن الكريم أيضاً :

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير » .

وقال نبي الاسلام عليه السلام : « الانبياء أبناء علات ، الأب واحد ، والأمهات مختلفات » .

فأنت ترى أن الأديان متحدة في الأصل ، وإنما جاء الاختلاف والتفريق من التحريف والابتداع الذي قام به الكهان والجهال في كل دين سماوي ، وما الموسوية والمسيحية والمحمدية إلا مترادفات لمعنىً واحد ، هو الاقرار بوحدانية الخالق ، والإخبات لتعاليمه وشرعه ، ولكن الناس اختلفوا ، « وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم البينات » ! .

ومن ذلك يتبين أن الأديان السماوية العالمية لم تحل العداوة بين المختلفين في العقيدة ، بل دعت الى الوحدة والاجتماع ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمةً واحدة !! .

وفي ٢٢٢ يقول المؤلف : « نستطيع أن نقدر الخدمة العظيمة التي قدمتها الحركة الكمالية الى اللغة التركية باقتباسها حروف « ألفباء » اللاتينية ، باعتبار أنها تمتاز عن « ألفباء » العربية في أنها بلغت في الاستغناء عن الحركات آخر مراحل التطور المحقق » .

وأنا مع إعجابي بنهضة الكماليين في شؤون كثيرة ، لا أساير المؤلف في الاعجاب بهجرهم للحرف العربي وإيثارهم اللاتيني ، فما يدل ذلك إلا على انعدام القومية ، وعدم الحفاظ على لغة القرآن ، تلك اللغة التي أوصلتهم يوماً ما إلى مجد لم تره أمة في العالم ، من الناحيتين المادية والروحية ! ولقد كان في مكنة الكماليين أن يصلحوا من شأن « ألفباء » العربية ، بأن يخترعوا فيها حروفاً للحركات ، فيحفظوا بذلك لغة دينهم ، وقوميتهم : » وقد حاول هذا

الاصلاح بعض المفكرين العرب على صفحات بعض المجلات والكتب ولعلهم يوفقون !!

كذلك ألاحظ أن المؤلف أكثر من ذكر الكتب والمراجع وأسماء رجال الاجتماع بالحروف اللاتينية فقط في صلب الكتاب، وعندي أن هذا يشوّش على القراء قراءتهم، وخصوصاً الذين لا يعرفون لغة أجنبية وهم الكثرة الغالبة في بلادنا. ولذلك كان من واجبه أن يكتب هذه الأسماء بالحروف العربية في صلب الكتاب، وإن أراد الدقة في العمل فلا مانع من ذكرها بالحروف اللاتينية في الهوامش.

كذلك أعاتبه على إهماله لرجال الاجتماع العرب والمسلمين في العصور الماضية، فما لا شك فيه أن لهم باعاً طويلاً في هذا العلم، وإن يكن بأسلوب وتعابير ومظاهر غير المعروفة لنا اليوم، وما أظن أنه استشهد بعربي في كتابه إلاّ بابن خلدون مرة أو مرتين !...

إن للغرب نهضة علمية باهرة، ولكن يجب أن نذكر أنها عنا أخذت، ولعلها إلينا تعود يوماً من الأيام !..

لا يسعني في النهاية إلاّ تهنئة الاستاذ عبد الفتاح إبراهيم على هذا الأثر العلمي القيم، وأتوقع بعد أن قدم مقدمته أن يدخل في الصميم، فيفصل لنا قضايا الاجتماع تفصيلاً لأنه من العلوم الهامة التي يترتب عليها كثير من الآثار الخطيرة في تقدم الأمم وعلوّ شأنها، وما أحوجنا نحن الشرقيين إليه في هذا العصر، والله ولي التوفيق.

احمد الشرباصي

المدرس بالازهر الشريف

١ — أثر العرب في الحضارة الأوربية

للاستاذ عباس محمود العقاد

توافر لهذا الكتاب عنصران قويان لهما خطرهما، وأهميتهما في مجال الدراسة والتأريخ، عنصر الموضوع الذي يدور حوله البحث. فهو من الموضوعات التي غدت مناراً لاضطرابات الأفكار بين متعصب لها، ومتجنٍّ عليها، ولم يظفر هذا الموضوع بالدراسة العلمية التحليلية — فيما أعلم — قبل هذا الكتاب، فقد استطاع — العقاد — أن يبلغ الحز من تلك المشاكل المعقدة، والنفاذ الى اللباب في كل ما يعرض له، وبيان الأسباب، والكشف عن

العوامل الطبيعية التي خلقت هذه الظواهر ، لائذاً بالنزاهة العلمية ، التي لا تورّط ، ولا تغالي ، بل تعرض على المشرحة كل ما تريد أن تدرسه ، وتضعه تحت المجهر ، ثم تراقب ، وتستقرىء ، وتشاهد ، وتسجل ما تصل اليه بعد التجربة ، والتحليل ، والتأكد ، وهو يقرر أنه ليس من همه في هذا الكتاب أن ينفي مزايا الشعوب ، والسلالات ، فان هذه المزايا حقيقة لا شك فيها ، ولا سبيل الى نكرانها ، ولكننا إهتممنا برد هذه المزايا إلى عدة عوامل طبيعية ، وأسباب تاريخية ، تسري على كل قوم إذا تعرضوا لها ، ولا ينفرد بها الساميون ، أو غير الساميين ، وبهذا الميزان الصحيح تنعقد الموازنة بين الحضارة العربية ، وسائر الحضارات فلا تشيل في الميزان . هذا هو المنهج الذي ينهجه العقاد في دراسة أمثال هذه المباحث فلا يستعين بالثروة الإنشائية حيث تكون الكلمة المنطق الحكيم ، والسند التاريخي الركين ، وقد أخذ يدرس كل هذه المظاهر التي أخذتها أوروبا عن العرب ثم عقب بما أخذته العرب عن أوروبا فتكلم عن العرب ومن هم ؟ والعقائد السماوية ، وآداب الحياة والسلوك ، والتدوين ، وصناعات السلم والحرب ، والأصل والنقل والطب ، والعلوم والجغرافيا والفلك والرياضة ، والأدب والفنون الجميلة والفلسفة والدين . ثم يتناول بعض الألوان التي استعارتها العرب عن أوروبا . فتكلم عن — سداد الديون ، والاجتماع ، والسياسة ، والحكومة البرلمانية الوطنية ، والأخلاق ، والعادات ، والأدب ، والفن ، والصحافة ، فجاء هذا الكتاب أجل دراسة عالجت هذا الموضوع وردّت الى كثير من قلوب شبابنا المثقف إيمانهم ، وإجلالهم ، لحضارتهم على أساس علمي ، لا من طريق إثارة الحماس ، وإيقاد جذوة التعصب . والعنصر الآخر هو تلك المهارة ، والدقة ، والحذق في التحليل ، واستخلاص النتائج من المقدمات حتى يستطيع الكاتب الذى يتصدى لهذه الدراسات أن يقدم ما ينفع ، ويعيش ، وهذا البحث يعد المثال ، والنموذج في هذا النوع من الدراسة التي يجب أن يكون هدف من يروم الكتابة ، ويدرس التاريخ .

٢ — كتب وشخصيات

للاستاذ سيد قطب

لكل كاتب جانبه الحي الخصب الذي تتجلى فيه خصائص ذهنه ، وطبيعة ملكاته ، فهو مبدع ، متفوق ، دقيق ، ما انطلق في ميدانه ، واستجاب لإلهامه ، والاستاذ — سيد قطب —

يكاد يتفرد في مجال النقد الأدبي بنوع من الأسلوب الطيع ، والتناول المحكم ، خليقان بالثناء والتشجيع ، يعاونه حس مشبوب ، وذوق مصقول ، وبصر بهذا الضرب من النقد . ولقد استطاع أن يتسنم هذه الذروة المرموقة ، واثباً . وكتابه هذا تظهر فيه كل هذه الخصائص التي يمتاز بها هذا الذهن المتوقد ، المأمول في عالم النقد والأدب ، وهو كتاب له أثره القوي في تمثل هذا اللون من النقد ، ورياضة الأذواق الناشئة على تذوق الجمال الفني ، وتبصيره بمواطن المآخذ ، ومحاولة إعطائه الصورة الصادقة التي يجب أن ترتسم في نفوس الشباب لماهية الأدب ، ورسالة الأديب ، وله أيضاً جانبه الخاص من حيث هو دراسة أدبية للأدب في هذا العصر ، فهو يتناول الأدباء المعاصرين بالدراسة ، وتصوير مذاهبهم وتوضيح مناهجهم في الكتابة والتفكير ، عن طريق كتبهم فهو يأخذ بعض الآثار التي تصدر عن هذا الأديب ، أو ذاك ويجعله محور كلامه ، ويتخذه وسيلة لافاضة الكلام عن أسلوبه ، ونهجه ثمَّ يحاول أن يتخذ من كل هذا مذهباً عامًّا للكاتب ، أو الشاعر ، أو القصَّاص ، فهو في هذا يدرس شخصيات الأدباء عن طريق كتبهم ، فليس هو تراجم لهؤلاء الأدباء ، ولا دراسة تحليلية شاملة ، عميقة عنهم ، ولكنك تستطيع أن تقول إنه دراسات لبعض جوانب من هذه الشخصيات ، يثيرها ، ويدعو اليها ، هذا الأثر ، أو ذاك الذي صدر عن هذا الأديب أو ذاك والذي كان داعية البحث ، والهدف الأصيل للناقد ، ولكن الكاتب لم يترك موضوع الكتاب يفرض عليه القيد ، ويحتجزه خلف أسواره ، بل كان ينطلق حرًّا في كثير من الأحيان حيث يلم الماماتٍ واسعة في نواحي الشخصية العامة حتى يضع بين يديك صورة متقنة لها ، فجاءت دراسات ممتعة خصبة في هذا الباب الذي تشتد حاجتنا اليه ، لما فيه من صقل للأذواق ، وإرهاف للاحاسيس ، ومعاونة في النهوض برسالة الفن والأدب . ففيه آراء قيمة عن الفن ، والقصة ، والكتَّاب ، والشعراء بين شيوخ ، وشبان ، وهذه الدراسات تبرز السمات الفنية . والخصائص الأدبية ، وطرائق التفكير ، والتعبير ، لأمثال الأساتذة القادة : طه حسين ، والعقاد ، وهيكل ، والمازني ، والحكيم ، وأدهم وغيرهم ممن تلمع أسماؤهم في آفاق النهضة الأدبية المعاصرة .

محمد عبد الحليم أبو زيد

لتخليد ذكرى المرحوم نعمة يافث

تلقينا من الاستاذ أنطونيوس يافث من كبار المهاجرين اللبنانيين الادباء في سان باولو في برازيل مجلدين كبيري الحجم وقفهما على ذكرى المرحوم نعمة يافث نسيبه . وقد توفي سنة ١٩٢٤ .

والذين تولوا التدريس في الجامعة الاميركية في بيروت في أواخر القرن الماضي أو كانوا طلاباً فيها إذ ذاك يعرفون نعمة يافث تلميذاً نجيباً من تلامذتهم ، أو رفيقاً من رفقائهم ، على مقاعد الدرس ، أو صديقاً حميماً من أصدقائهم بعد تخرجه ، ويعترفون بما أوتيه من مواهب عقلية وخلقية ممتازة . ويذكرون له كثيراً من المفاخر والمآثر التي رفعت قدره في عيونهم ، وأدامت صداقتهم له وعرفانهم لفضله حيًّا وميتاً .

تعلّم المرحوم نعمة يافث في مدرسة المرسلين الانجليزية في بلدته « الشوير » من أعمال لبنان . وبعد ما أتمّ دروسه فيها التحق بالكلية الاميركية ، ونال منها البكالوريوس في العلوم سنة ١٨٨٢ وفي أثناء الدراسة كان معروفاً بالنجابة والألمعية والاجتهاد والاكباب على تحصيل العلوم ، ولاسيما علوم الرياضة والفلك والاقتصاد ، فقد برع فيها براعة أهّلته لمساجلة كثير من الأساتذة والعلماء على صفحات المقتطف .

وبعد ما تخرَّج في الكلية دعي لادارة مدرسة للطائفة الارثوذكسية في بيروت فأحسن ادارتها ، وأصلح نظمها وترك له فيها مآثر مشكورة . وكان المجمع العلمي الشرقي قد أسس قبل ذلك فانضمّ الى عضويته ، وكان فيها زميلاً لكثير من أقطاب العلم في ذلك العصر ابراهيم اليازجي ، وابرهيم الحوراني ، وبطرس البستاني ، وسليم البستاني ، والدكتور يعقوب صرّوف ، والدكتور فارس نمر ، وغيرهم ، فانتخبوه كاتم سر المجمع تقديراً لمؤهلاته وذكائه ونشاطه .

ولكن لبنان ضاق بهمة نعمة يافث كما ضاق بكثيرين قبله ، فنزح الى برازيل في سنة ١٨٩٣ .

وكان قد سبقه إليها اخوته الثلاثة وأقاموا في سان باولو يشتغلون بالتجارة ، فانضمّ اليهم وأسس معهم شركة تجارية ، تولى ادارتها ، فكان حليفها النجاح ، وشجعه ذلك على تفضيل الاشتغال بالصناعة واختار صناعة غزل القطن ونسجه ، لأنه توقع ببعد نظره ان مصنوعات القطن ستكون من أكثر المصنوعات رواجاً . وتمّ له ما أراد ، وساعدته مؤهلاته العلمية ، وذكاؤه الطبيعي ، وخلقه المتين على احراز أقصى ما طمح اليه من نجاح وبلغ مصنع « يافث »

في سان باولو من الشهرة وذيوع الاسم والازدهار فوق ما كان يحلم به ، واتسع المصنع حتى صار يشتمل على ٤٥ الف مغزل، و١٤٠٠ نول، وأربع مطابع لطبع القماش، وكان يعمل فيه ٢٥٠٠ عامل ، واقتنى هو واخوته من وراء ذلك ثروة ومجداً .

وبعد ما قضى في المهجر ٢٨ عاماً حنَّ الى وطنه ، فزار الشوير في سنة ١٩٢١ وعرج على مصر، والتقى بأستاذه الدكتور يعقوب صرّوف وكان المقتطف قد نشر له كثيراً من البحوث الطلية و المناظرات العلمية في الرياضة والطبيعة واللغة كما تقدم .

وحالما وطئت قدماه مصر انصرف الى الاهتمام بشؤونها الاقتصادية وأخذ يبحث في كيف يجلب اليها البن البرازيلي ويبيعه فيها رخيصاً . وفي ما يتعلق بالقطن المصري كان له رأي خاص هو أن تحتكر حكومة مصر هذا القطن كما احتكرت حكومة البرازيل محصول البن اعتقاداً منه بأن ذلك يفيد الحكومة والشعب .

ولم تقتصر براعة نعمة يافث على حسن ادارة الأعمال الادارية والصناعية ، بل كانت له نظرات اجتماعية تدل على سعة عقله ، واستنارة بصيرته،وبعد نظره . كما كانت له نظرات فلسفية في الأديان فدعا الى التمسك بروح هذه الأديان، وتآخي الناس، ونبذ التعصب الديني. وفوق هذا وذاك كان وطنيـاً صادق النزعة يحب لبلاده الاستقلال والحرية .

هذا هو الرجل العصامي الذي جمع الأستاذ انطنيوس يافث آثاره من خطب ومقالات وبحوث في هذين المجلدين باسطاً تاريخ حياته بسطاً شافياً ، فذكر نسبه ، ومولده . وتثقيفه ورجولته ، ونبوغه في العلوم ، ونجاحه في الاقتصاد ، ووصف أدبه وتواضعه ، وكرم خلقه، واستقامته، ونزاهته ، وبره بوالديه ، ووفاءه لأصدقائه، وحسن معاشرته لزوجته ، واجادة تربيته لأولاده ، الى أن انتقل الى رحمة مولاه في سـنة ١٩٢٤ فأجمعت الصحف في لبنان وسورية والمهجر على رثائه وأشادت بفضائله . أسكنه الله منازل الأبرار ، وجعل من سيرته نبراساً يستضيء به الشباب في الحياة .

قصة الالياذة

للسيدة عنبرة سلام الخالدي : ٢٧٠ صفحة — المطبعة العصرية بالقدس

قبل تُسع عشرة سنة كانت مدينة بيروت تفاخر وتزهو بمجلة « الـكشاف » التي ضربت رقماً قياسيـاً عالياً بطلاوة بحوثها وروعة مواضيعها ، إذ كانت مسرحاً لأقلام أعلام بارزين في البسيط العربي كالأثري والزهاوي من بغداد ، وكردعلي والمغربي من دُمشق ، والريحاني

والفاخوري من بيروت ، وعبد الله مخلص والنشاشيبي من بيت المقدس .

وفي عداد هذا الرعيل الطيب الفوح ، المعطر العذا ، كانت السيدة عنبرة سلاّم الخالدي قرينة الأستاذ المربي الكبير احمد سامح بك الخالدي ، تنشر نفثاتها الطيبة تباعاً من انجلترا ، يوم كانت تطلب العلم في جامعة لندن ، فكنت مسحوراً بطلاوة موضوعاتها وروعة أسلوبها ورجوت لها من ذلك اليوم مستقبلاً أدبيًّا باهراً

« . . . وإن في نساء[1] هذه الأمة ، قوًى هائلة مستترة ، بدرت لي بوادرها منذ أعوام ، وكان لي حظ مرافقتها منذ شبيت ، يا لروعتها عند ما ترغي وتزبد ، جائشة كالإناء الغالي ، ويا لأنوثتها المستحبة ، تخالف سنن الطبيعة ، وتقنع بالهمود عند ما يوضع الغطاء ، وتسد المنافذ ، وتحكم الأقفال ! ! ، ولكنه همود يتلوه تدفُّق واصرار في غيرزهو وادعاء ! » .

هكذا ظهرت عنبرة سلام ورفيقات لها ، ظهرنَ ثم اختفينَ وظهرنَ ثم انزوينَ ، وها هي ذي أصواتهنَّ الحلوة تعود الى المنبر النسائي بفعل القوة العلوية الدافعة الى الخير

ودارت الأرض دورتها حول الشمس . . . وما هي إلاّ سنوات قلائل حتى كانت السيدة عنبرة من نصيب بيت المقدس ، فلم يقف إنتاجها — كأم — عند حدّ . . . . رغم مسؤولية الزواج وواجبات الابناء ، بل استطاعت تلك السيدة النابهة أن توفق بين شؤون منزلها ورغبة قلمها ، وكان آخر ما أضفاه ذلك اليراع الخصب على خزانة الأدب العربي ترجمتها (الياذة هوميروس) عن كتاب « قصة الالياذة » بالانكليزية لألفرد تشرش أستاذ اللاتينية في جامعة لندن ، فجاءت ترجمة السيدة الخالدية تحفة رائعة تتسم بإشراق الديباجة وطلاوة الأسلوب مما يجعل الكتاب جديراً بأن يحتفظ به كل مثقف

وهذه القصة تسرد تفصيل وقائع الخصام بين زعيمين كانا حليفين في الحرب وما أنتجه خصامهما من كوارث لأصدقائهما . وقد قال أحد شعراء الرومان « ان الالياذة بتقديمها الأمثال عن عظماء وهم يعملون تعلّمٌ ماهو شريف وما هو شائن أفضل مما يعلمه كل الفلاسفة النظريين » .

ولو حظي كل قطر عربي بجماعة طيبة كالسيدة عنبرة في جهودها لانجلى ليل العرب . . . وقطعوا شوطاً بعيداً في مضمارهم الاجتماعي ، ولكن الوعي القومي غيره في بلاد تتلمس سبيل النجاة والانطلاق من كل قيد واسار ! .

(بيت المقدس) « البروى الملثم »

---

(١) من كلمة نشرتها الاديبة السيدة سلمى صائغ عام ١٩٢٨

فهرس الجزء الرابع

من المجلد التاسع بعد المائة

لحق بالمقتطف